الجارم والرواية التاريخية

دراسة تطبيقية في روايتي

هاتف من الأندلس وغادة رشيد

د. حلمي محمد القاعود

١ - **يعدَ «علي الجارم»(١) من الأدباء القلائل الذين اهتموا بالرَواية التاريخيَة من منظور إسلاميَ صاف، ويمثّل بكتاباته الروائية مرحلة من المراحل المهمة التي مرَت بها الرَواية في عصرنا الحديث، ويقفُ مع جيلِ الأدباءِ الذين كتبوا الرَواية التاريخيَة، وبخاصة «محمدَ فريد أبي حديد» و«محمد سعيد العرْيان» و«علي أحمد باكثير» ؛ موقفًا متميزًا من حيث إخضاع الفكرة القصصية للرؤية الإسلامية الصَافية؛ على العكس من آخرين طوَعوا الفكرة القصصيَة التي تعالج أحَداثًا إسلاميَة لتصورَات مشوشة أو غريبة، أو يبدو فيها الاهتمام بالقضايا الهامشية أساسًا، وغاية في حدَ ذاته، مما لايخدم الحدثَ الإسلاميَ ولايبلوره(٢) ؛ إن لم يَسِئْ إليه في أحيانٍ كثيرة(٣).**

لقد كتب «الجارم» عددًا لابأس به من الرَوايات التاريخية(٤) التي عالجت فترات عديدة في تاريخنا الإسلامي، وأحسب أن اختيار هذه الفترات لم يأت عفوًا؛ بل إنه اختارها بعناية لتلقى على الحاضر بظلالها، وليعالج من خلال أحداثها وشخصيَاتها

قضايا وأفكارًا كانت – ولعلها مازالت – تؤرّقُ الكاتب والأمَّة. لقد كانت مصرُ ومعها الأمة الإسلامية تُعَاني من الاستعمار الأجنبي، وتتعذَّبُ بآلام الاحتلال، وسيطرة الدّخيل، وسوء الإدارة، ومتاعب التخلّف، وتمزقِ أبناءِ الشعب الواحدِ، وصراعاتِ الحكّام، فضلاً عن الصراع الحضاري بين النموذج الوافد والنموذج الموروث أو السائد.

ولـــذا كان التعبيرُ عن هذه القضايا، وبخاصة قضيّةَ الاستعمار أو الصراع مع الغرب مسألةً مُلِحّةً وضرورية، وكان التاريخُ ميدانًا فسيحًا يستطيعُ الكتابُ، والشعراءُ أيضًا، أن يقولوا من خلاله مايشاءون دون أن يتعرّضُوا للمؤاخذةِ أو العقابِ الذي يفرضه المستعمر الظالم أو الحكومة التي ترتبط به عادة.

وكـان «علي الجارم» في هذا الإطار وفيًا لأمّته حين طَرَح هذه القضيّة من خلال أدبه ورواياته، مؤكدًا على انتصار الأمة ضد الغاصبين والمحتلين مهما بلغت قسوة الصّراع ووحشيته..

وإلى جانب هذه الغايةِ النبيلة: بعثِ روح الأمّةَ وشُحذِ همّتها؛ فإنّ لروايات «علي الجارم» التاريخيّة – فيما يبْدُو لي – هدفًا آخر، ولنسمّه «هدفًا تعليميًا» لايقلُّ أهميّةً عن غايتــه في بعث الأمّة، وهو تقديمُ النموذج الذي يتصــوّر أنه «المثَالُ» في الأسلوب والتعبير، لتستفيد منه الناشئة في كتابتها وإنشائها.. وقد حفلتَ رواياتُه بذلك الأسلوب الجزْلِ الفخمِ الذي يضمُّ عدداً كبيرًا من المفردات المهجورة، أو يعتمدُ علي مُعْجَمٍ غير مألوفٍ(٥) بهدف تقديم أسلوبِ قوي يَقُلِدُهُ الجيلُ الجديدُ الذي تأثَّرَ بلغةَ الصحافة السَّهلَة والتي أشاعتْ شَيئًا من الابْتِذَالِ التَّعْبِيريَ، وها هُوَ يعيدُ للغَة احترامَهَا – مرَّةً أُخْرَى – من خلال أسْلُوبهِ الرَّوائِيَ.

ولـعلَ اشْتغالَ «علي الجـارم» بالتَّعْليم وارتباطه به مُعظَمَ حياتهِ العمليَّة حتى أُحِيلَ على التَّقَاعُد، له دخل في هذه المسألة بحكم احتكاكه الدَّائم بالطلاب، ومعرفتــه لمستوياتهم، وخبرته بمشكلاتهم مع اللغة. وإذا عرفنا أن وزارة المعارف (التعليم الآن) قد قرّرت معظم رواياته على الطلاب في المرحلتين الإعدادية والثانوية، فإنّ عينه

لابد أن تكون قد ركزت على هذه النقطة المهمة، وهي المُستَوى اللُّغويَ أو التعبيريَ.. ولعل هذا مادفعه ليجدَّ ويكدحَ في تقديم معجم غير مألوف، يجهد الطلاَّبَ والمعلمين معًا (في زماننا بالطبع) للبحثِ عن معاني إلفاظه ودِلالاتِها.

وإذا كان «علي الجارم» من شعراءِ عصرِ النَّهضةِ الذي عاش شبابَهُ في ظلال «شوقي» و «حافظ»، وحَرَصَ على الصياغَةِ الجزلية والأدَاءِ الفخْمِ من خلال العمُود الموروث، واستدعاء روح الشعراء القدماء، فإن ذلك لابد أن يؤثِّرَ بالضرورة في تَوَجُّهِ الشاعر الرِّوائي إلى لغةٍ جَزْلةٍ فخْمة، تبْهَرُ من يقرأها، وإن كانت لاتعطيه نفسها بسهولة لأوَّل وَهْلةٍ.

إنَّ دوْرَ علي الجارم في أسلوب الرواية يشبه إلى حدِّ مادورَ البارودي في الشعر، فكلاهما عمل على إحْيَاء الصِّياغة المتفوِّقَة قديمًا مع الفارق الموضوعيِّ بين الجنسين الأدبيَّين (الرواية والشعر)، وإذا كان المنفلوطي قد سبق إلى صياغة حيَّةٍ ومؤثرة في رواياته وأقاصيصه؛ فإن «الجارمَ» يُعَدُّ من ناحيةٍ ما، امتدادًا لَهَ، بتركيزه على قوة السَّبْك وجزالةِ اللفظ وغرابتهِ أحيانًا.

ولاشك أن أجيالاً كثيرة؛ قد تأثرتْ بأسلوب الجارم أو تفاعلتْ معهُ بحكمِ قراءتها لرواياته من خلال المناهج الدراسيَّة أو الطبعات الشعبية الميَسرة(٦).

وفيما يلي سنتناول، إن شاء الله، روايتَيْن من روايات «علي الجارم» التاريخية، بالدراسة التطبيقيَّة، حيث تظهرُ فيها معظمُ خصائصه الفنيَّةِ والأسلوبيَّة إلى جانب رؤيته أو تصوّره للتاريخ الإسلامي، وكيفيَّة معالجتهِ لأحداثه، ومدى اتساق هذه الأحداث مع المصادر التاريخية..

الروايتان هَمَا «هاتفٌ من الأندلس» و «غادة رشيد»، وقد اخترناهما اختيارًا مقصودًا لأنهما أقربُ للتعبير عن خصائصه، فضلاً عن أنَّ «وزارة المعارف» قد قرَّرَتْهُما على طلاب المدارس على مَدَى سنواتٍ طويلة ولهما في كثير من الآذان صدًى ورنين.

٢ - تدور أحداثُ «هاتف من الأندلس» في فترةٍ حرجةٍ من فترات الحكم

الإسلامي في الأندلس، وهي الفترة المعروفة بعصرِ الطَّوَائف؛ حيث كَثُر الأمراءُ وكثرتْ الدُّوَيْلات التي يحكمونها، واشتدَّ بيَنْهمُ الصراع الذي كان يعبّر عن نفسِه غالبًا بالدسائس والفتن والقتال، وقد اختار «علي الجارم» أن تدورَ أحداثُ روايته في عهد «أبيٍ الحزم بن جهور» حاكم «قرطبة» (٤٢٣هـ)، وكانت «قُرطبةَ» آنئذٍ في تنافس وصراع مع «إشبيلية» وحكامها من آل عبَّاد. ونرى أبطال الرواية يتحركون عبر المدينتينْ الشهيرتين يصنعُون الأحداث، ويسطِّرُونَها في سجلّ التاريخ؛ وإن كانت قرطبة تحظى بالنصيب الأوفى لكثرة الأحداث التي جرت على أرضها، وتعدّد الأبطال الذين يتخذُون منها مقرًا ومُقَامًا، وقد افتتح المؤلفُ روايته بفقرةٍ تعبّر عن شدةِ اهتمامه بقرطبة وهيامه بها، ويوضح من خلالها مدى ماتحويه من جمال وبهجة وعظمة . **يقول** :

«في يوم من أيام الربيع رقّتَ فيه أنفاسُ النسيمِ، وجمّلت أفقه أضواءُ الأصيلِ، ظهرتْ قرطبة عروسُ المدائن، أمُّ قُرَى الأندلسِ، وحولها البساتينُ والخمائلُ، تحيط بها أشعّةَ الشمسِ الذهبيَةِ ،فتبدو كأنها صورة في إطار من ذهب، وقد انحدر تحت قدميْها الوادي الكبير نقيًا صافيًا كأنه خالص اللجين، وجرَتْ به السفنُ ترفّ قلاعُها البيض كما ترفُ الحمائم رأت ماءً وخضرة فحنّت إلى الورود.

انطلق الملاَّحُون ينغَّمون أهازيجَ لهُمْ، فيها حبٌّ، وفيها أملٌ، وفيها مجدٌ وبطولةٌ، فسرت ألحانهم مع هبّات النسيم مُطرِبَةَ، وتوثبت كلُّ موجة علّها تقتنصُ منها لحنًا. وامتد فوق النهر الجسرُ العظيم؛ الذي أمَرَ ببنائه عمرُ بن عبد العزيز ضخْمًا تيّاهًا يُبَاهِي بأقداسِه السبع عشرة مابناه الأوّلون، ويتحدّى أن يكونَ له مَثَلٌ في الآخرين . . »(٧).

ولعل «الجارم» بدأ بهذا الغزل الجميل لمدينة قرطبة ليعطي من ورائه الصورة المعاكسة والتي لاتسرّ، وهي الصورة المتمثّلة في الصّراع والتمزّق والتشرذُم، وحيثُ لايَبْقَى من الجمال أو البهجة أو العظمة شي يُحسَبُ لمن يحكمون قرطبة أو إشبيلية أو غيرهما من دويلات الإسلام في الأندلس .

وواضح أن اختيار «الجارم» للأندلس مسرحًا لأحداث روايته؛ يمثّل - من وجهة نظري - استجابة عفوية للواقع السياسي أو الاجتماعي السائد يوم كتب روايته، أكثر من كونه استجابة لرغبة التعبير عن حياة شاعر موهوب ومشهور في زمانه، وهو «ابن زيدون» وعلاقته «بولّادة بنت المستكفي»، وهو الموقف ذاته بالنسبة لما كتبه حول المتنبي وأبي فراس الحمداني، فقد كان شاغله الشاغل هو الرغبة في إنهاض الأمة الكبيرة من كبوتها، ويقدم دروس التاريخ ليبعث فيها روح اليقظة والتوثب والجهاد، وهو ماتعبّر عنه بوضوح روايته الثانية «غادة رشيد» والتي تعالج فترة الحملة الفرنسية على مصر واحتلال رشيد ١٧٩٨م حتى حملة فريزر الإنجليزية عام ١٨٠٧م واندحارها على يد الشعب المصري، ومن خلال الرواية يسجل «الجارم» مواقف القوى المختلفة على أرض مصر من الصراع مع الغزاة الفرنسيين ثم الإنجليز، ويكشف عن رُوح الشعب المصريّ وصلابته مع الأخطار الخارجية ثم تضحياته التي لاحدّلها....

إذًا فالروايةُ التاريخيةُ التي يكتبها «الجارم» تبدو ذات هدف واضح ومحدّد يرتبطُ ارتباطًا وثيقًا بالصراع مع العدوّ الخارجي والعدو الداخلي - إن صحّ التعبير - والذي يتمثل في الفرقة والأنانية والغفلة والظلم الاجتماعيّ والطغيان واستباحة دماء الأشقّاء...

ويبدو أن «الجارم» في معظم رواياته التاريخيّة، وبخاصةٍ تلك التي ترتبطُ بالشّعر والشعراء (أبطالاً للرواية أو أشخاصًا ثانويين)؛ قد اعتمد على مصادر تميل إلى الأدب أكثر من التاريخ، بدليل مانراه من أحاديث غزيرة عن الشعر، وقيمة الشعراء، ثم النصوص الكثيرة التي يورِدُها والتي تكادُ تَشْغَلُ معظم صفحاتِ الرّواية.

صحيحٌ أن اعتماده على تاريخ «الجبرتي» واضح في «غادة رشيد»، ولكنه في «هاتف من الأندلس» يبدو، وقد اتكأ على «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» لأحمد بن محمد المَقّري التلمساني، والعقد الفريد لابن عبد ربّه، وإن كانَ «نفح الطيب» يبدو أكثر حُضُورًا في الرواية إذا ماتلمسنا المقارنة بين وصفه للمدن والبيئات

وبعض الآثاروبين ماكتبه صاحب النفح.

وقد ظل «الجارم» ـ بصفة عامة ـ وفيًّا للأحداث كما نقلتها كتبُ الأدبِ والتاريخ، ولم يجنح إلى التَّغيير إلا بقدرٍ ضئيل، وبخاصّة فيما يتعلَّقُ بالروابط العاطفيَّة وسيرة الأشخاص الذاتية، التي لم تُشرْ إليها كتب التاريخ بمافيه الكفاية أو أشارت إليها من خلال روايات متعدِّدة أو متضاربة، أو تلك التي تناقل الناس أخبارها شفاهةً كما جرى بالنسبة لغادة رشيد، وهو ماسنتناوله بإذنه تعالى فيما بعد.

٣ - بصفة عامة؛ نجد الشخصيات في روايتي «هاتف من الأندلس» و «غادة رشيد»؛ مجرد إطار خارجي لتحريك الأحداث التاريخية؛ حيث تظهر من خلالها كأحداث قويَّة مُجلْجِلَة عبر السّرد الرّوائي، وتبدو الشخصيات تابعةً لها أو ناطقةً بها، لأنّ طغيان الوقائع التاريخية كان أكبر من كل شيء في الرواية أو النصّ الروائي، والكاتب يريد أن يصل إلى غايته من أقصر طريق، فلم نَرَ شخصياته من الداخل، ولم نشعر بحركتها التلقائية والعفوية، ولكننا رأيناها مربوطة بخيوط من حرير على قلم الكاتب، فهي تتحرك بأمْره، وتنطق بإرادته، فجاءت مسطحة وخاويةً، أو مجرَّدَ أشياءَ عائمَة في نهر الأحداث المتدفق، والقارئ مشدود هنا إلى مايجرى على مستوى المجتمع أكْبَرَ من اهتمامه بالأشخاص الذين يُفْترض أنهم صانعُو الأحداث. وهذا الحكم العام لايمنع أن تكون هنالك بعض الشخصيات (وبخاصة الثانوية أو التي لم يركز عليها الكاتب) أقرب إلى الشخصية الحيَّة، التي تحَرّك الأحداث وتصنفها.

في رواية «هاتف من الأندلس» يقوم البناء الفني على أساس حكاية «ابن زيدون» الشاعر والكاتب والسياسيّ المعروف في زمانه، ووزير «أبي الحزم بن جهور» حاكم قرطبة، مع «ولاّدة بنت المستكفي» الأميرة والشاعرة، والتي تنتسب إلى الأسرة الحاكمة قبيل تولي «ابن جهور». وهي حكاية مشهورة في كتب الأدب والتاريخ بحكم الأشعار المتواترة عن علاقة ابن زيدون بولاّدة، واكتسبت شهرة كبيرة في عالم الأدب، وبخاصة نونية «ابن زيدون» التي **مطلعها**:

أضْحى التنائي بديلاً من تدانينا　　وَنَابَ عن طِيبِ لُقْيَانا تجافينا

إنَ الزّمانَ الذي مازالَ يُضـــحِكُنَا   أنسًـا بِقُـــرْبهم قــد عــادَ يُبْكِيـنا
غِيظَ العِدَا من تساقِينَا الهَوى فدَعواْ   بأنْ نَغَصَّ فقــال الدهرُ: آمينا . . إلخ

وقد قيل في هذه الحكاية الكثير، وإن كانت فيما أتصوّر أقرب إلى قصص الحب العذري الذي تنحو فيه العلاقة العاطفية إلى شيءٍ من التجويد والخيال، حتى وكأن واقعها التاريخي ثابتًا لامحالة .

وقد اهتمَ «الجارم» بتصوير المجتمع القُرْطبيّ الذي يمورُ بالفتن والدّسائس والاختراق مِنْ قِبَلِ الأعداءِ الحقيقيّين؛ مُمَثّلِين في شخصيّة «عائشة بنت غالب» ذات الأصل الإسباني، والتي تسعى إلى الظفر بابن زيدون وإخضاعه لإرادتها والحيلولة بينَه وبينَ ولاّدة (لماذا؟)، «وأسپيوتو» الجاسوس الإسباني الذي يتخفى في صورة طالب علم جاء ليدرس الطبّ على يد «ابن زُهْر»، ويعمل ضدّ الدولة خفية، ويتضامن مع «عائشة» لتحقيق أغراضها. وإلى جانب ذلك يصوّر «الجارم» حركة المجتمع القرطبي المزدهرة بالأدب والفن والعلم والموسيقى والعمارة والحضارة، وكثيرًا مايشيرُ إلى النَّدوات الأدبيّة والمجالس العلميّة والحفلات الفنية، ويحكي مايجرى فيها مُسْهبًا حينًا، ومكتفيًا بالإشارة في حين آخر .

ونلاحظ أن أهم المعالم في شخصية «ابن زيدون» كما صورها «الجارم»، مايرتبطُ به بوصفه شاعرًا، ولايملّ من إبراز النماذج والنصوص من شعره والتي تتحدث عن قيمته الشعرية، بل إنه منذ البداية يعطينا حكمًا على شاعريّة «ابن زيدون» أو مستواهُ الشعري حيث يقول: «وكان كثير التحرّز يثبت ويمحو، ويختار كل لفظ قبل أن يجري به قلمه..»(٨)، وواضح أن هذا حكم ذاتي أصدره الجارم على ابن زيدون، ولعله كان يتابع في ذلك بعض النقاد القدماء الذين أرادوا التدليل على اعتناء ابن زيدون بشعره، بينما الواقع يدلنا من خلال قصائده أنه كان شاعرًا مطبوعًا ومفطورًا على الشعر السلس اللّين الذي لايبدو فيه التحكيك أو التنميق. ويبدو أن الجارم يستدل على ماذهب إليه ببيت الشعر الذي يقول فيه «ابن زيدون»:

أجِلْ عَيــنَيكَ في أسـطارِ كتـبي   تجد دمْـعِي مــزاجًا للمــدادِ

والبيت كما نرى يعبّر عن شيء أقرب إلى إثبات الصلة الوثيقة التي تربط مابين نفس الكاتب وأدبه، وأبعد مايكون عن إثبات فكرة التحكيك والتنميق .

والسؤال الآن: كيف جاءت صورة ابن زيدون وولّادة في رواية «هاتف من الأندلس»؟

إنه يصور ابن زيدون بقوله: «أديب الأندلس وشاعرها، وهو شاب مؤتلق الشباب، ناضر العود، معتدل القامة، وسيم الوجه، عربي الملامح والشمائل. حاجبان، إذا اقتربا عرفت فيهما التصميم والعناد وقوة الشكيمة، وعينان فيهما ذهول الشاعريّة وبُعْد مَدَى الخيال، وأنف أشمّ يدل على الكبرياء والثقة بالنفس، وفم مفوّهٌ خلق ليكون خطيبًا»؛(٩) وهو تصوير من الخارج يومئ إلى الداخل، وكذلك الحال حين يشير إلى جذور ابن زيدون الأسرية، فيقول: «وابن زيدون من بيت علم وأدب وثراء ونعمة، كان أبوه من قضاة قرطبة، رفيع المنزلة، عزيز الجانب . . فنشأ الفتى كما ينشأ أبناء المترفين ناعم العيش يتقلب في جنبات النعيم»(١٠)، فبيت العلم والثراء والنعمة يومي بالترف ونعومة الحياة، وإن كان الأمر قد يترك شيئًا من اللبس حول حياة ابن زيدون بين ماقاله في الفقرة السابقة وهذه الفقرة، وبخاصة عند حديثه هناك عن قوة الشكيمة وحديثه هنا عن الترف .

بيد أن مايعنينا هنا هو صورة ابن زيدون الحيّة والمتحركة والتي نفتقدها إلى حد ما بسبب إصرار الكاتب على تقديمها من الخارج فحسب، فالمفترض أن يكون ابن زيدون داعية للوحدة بين المسلمين وحكومات الطوائف الممزّقة كما توحي معالجة الرواية لشخصيته، ولكننا نجد هذه الشخصيّة مشغولة بأكثر من قضيّة تجعل من هذه القضيّة (الوحدة) مسألة من بين مسائل عديدة أبرزها: الحب، والحكم، والشعر، والترف، والرفاهية، وإن كانت هذه كلها يمكن أن تخدم المسألة الأساس لو وظّفت التوظيف الفنيّ، بل إننا لانكاد نستشعرها إلا من خلال بعض الحوارات التي تجرى بين ابن زيدون وأصحابه، وها هو يدعو للوحدة والتضامن ولم الشمل وجمع الكلمة فيقول:

«هذه أمنيتي ياسيدي! فإني أعتقد أن العرب لن تعود إليهم قوتهم إلا إذا اتحدت رايتهم وتوافقت كلمتهم، وكانوا بنياناً مرصوصاً لامطمع فيه لعدو . . »(١١).

أو قول أحد أصحابه وهو الدارمي معبراً عن جهوده في هذا السبيل من خلال حواره مع ابن حيان:

«لقد تنقّلت في إفريقية، وحادثت أمراءها ثم بلغت الأندلس منذ عام، وقابلت ابن عبّاد صاحب إشبيلية، وابن ذي النون أمير طليطلة، وابن صمادح زعيم بطليوس، ورأيت منهم ميلاً إلى لمّ الشمل وجمع الكلمة. فهزّ ابن حيان رأسه في تهكم وسخرية، وقال:

بشرط أن يكون كل أمير منهم هو الرئيس الأكبر! »(١٢).

وتنمو القضيّة على هذا النحو من خلال الحوارات بين ابن زيدون وأصحابه، أو بين بعضهم وبعضهم الآخر دون أن تكون هنالك حوادث تدلّ بطريقة فنيّة عليها. وإن كانت فائدة هذه الحوارات في رأيي ترجع إلى الأسباب التي أدت أو تؤدي إلى التمزّق والضياع على مستوى الأمة والأفراد جميعاً، فنرى مثلاً من خلال الحوار التالي بين جماعة ابن زيدون رصداً للأسباب التي جرّت البلاء في الأندلس والشرق معاً، ومن أهمها التخاصم والاستعانة بالأجانب:

«. . .– إن التحاسد والتنافس والاعتصام بالأجنبي والتكالب على الحكم والغلب، كل أولئك كان شره مستطيراً. فقال الدارمي:

– عندنا في المشرق استعان المعتصم بالأتراك، ومكّنهم من رقاب العرب، فكانوا حرباً عليه، وعلى خلفائه من بعده، وأصبحت الخلافة في أيديهم لعبة لاعب، يولّون من يشاءون، ويعزلون من يشاءون، فقاطعه ابن حيان قائلاً:

– أما في الأندلس فالمصيبة أشدّ وأنكى، فإن الدولة منذ سنة أربعمائة – وهي سنة الفتنة الكبرى – تتقسمها ذئاب ضارية: من مضرية ويمنيّة وصقالبة وبربر وإفرنجة. . »(١٣).

أما صورة ابن زيدون نفسها، فتبقى موزّعة بين حبّه لولّاده، وبين قرضه

للشعر، وتعرّضه لمؤمرات عائشة بنت غالب، وغضب ابن جهور عليه، ولجوئه إلى آل عباد، وحلمه بالعودة إلى قرطبة ظافرًا منتصرًا، ولكن بعد فوات الأوان. ترى لماذا لم نجد خيط القضيّة المصيرية بارزًا من خلال صورة ابن زيدون، وجاء باهتًا أو من خلال الحوار والسرد؟ في ظني أن الكاتب كان معنيًّا بتسجيل حياة الرجل كما هي، أو كما سجلتها كتب الأدب والتاريخ، دون أن يرتكز على قضية محور تبرز من خلالها شخصيّة ابن زيدون، ومثله بقية الشخصيات الأخرى.. وجاءت الشخصية الأساس لتعرض الأحداث من خلال وقعها عليه هي، وليس من خلال صنعها للأحداث، فدخل القارئ في عديد من القضايا التي تحتاج كل منها إلى رواية تجلوها وتبسطها وتصنع منها عالمًا زاخرًا ثرًا، لاسيما وأن أبطال «هاتف من الأندلس» يتمتعون على المستوى التاريخي والمستوى الخيالي بحظ كبير من الاهتمام في الوجدان الحديث والمعاصر.

لقد جاءت صورة ابن زيدون بالرغم من الوصف السردي الذي أجهد الكاتب نفسه في تقديمه صامتة أو استاتيكية، وشبه مستسلمة للأحداث تفعل بها ماتشاء، والأمر بالنسبة لولادة لايختلف كثيرًا، وصف من الخارج، وانصياع كامل لرغبة امرأة اسمها نائلة الدمشقية، وخواطر قليلة تومض فجأة حزنًا على ابن زيدون في سجنه، أو منفاه، ولنأخذ ملمحًا من صورة «ولادة» رسمه الكاتب. يقول عنها واصفًا شكلها الخارجي:

«**وكانت** ولادة في الثامنة عشرة، رائعة الطلعة، فاتنة مباهر الحسن، وجه لم تشرق الشمس على أنضر منه ولاأصبح، وقسمات تأنق في صنعها الجمال، وقوام لَوْ أدرك عهده الإغريق لجعلوا منه تمثالاً لكلّ مايتخيلونه من رشاقة ولدانة واتساق خَلْق، وكان أجمل مافيها تلك النظرات الساحرة التي تنفذ إلى كل قلب، وذلك الشمم العبشمي الذي تراه فتحبه وتهابه، والذي يوحي إليك أن الجمال معنى من المعاني التي يعجز البيان عن وصفها ببيان...»(١٤).

ويستطرد الكاتب إلى الحديث عن أدبها وشعرها، والترف الذي تعيشه، والنعيم الذي تحياه بوصفها بنت أمير وحاكم قرطبة السابق، ولكن الصورة كما نرى

لاتتحدث من الداخل أبدًا، وإنما تتحدث بلسان المؤلف، ولعله لهذا السبب اختار الجانب المضيء من صورة «ولادة» كما رسمها المؤرخون، وأهمل بقية الجوانب، وهي جوانب مثيرة، وكان يمكن أن تثرى العمل الروائي لو إنها وظفت توظيفًا فنيًا.. فهناك من يرى في «ولادة» أنموذجًا للتصوّن والعفاف وهناك من يراها مثلاً للتبذل والاستهتار، ولعل هذا ماجعل حب ابن زيدون لها يبدو مثيرًا وصارخًا، بل أن هناك من ذهب إلى وصفها بالشذوذ أو إصابتها بالمثلية(١٥) فضلاً على دورها في مجال السياسة ودسائسها. لقد كانت «ولادة» محورًا ومركزًا لحركة الأحداث في المجتمع القرطبي ومن ثم، فإن شخصية امرأة مثلها؛ كان ينبغي أن تكون أكثر إيجابية بالمعنى الفني، وأكبر تأثيرًا في الأحداث، ولكننا مع ذلك نجدها مسطحة مثل شخصية ابن زيدون، وربما كانت شخصية «عائشة بنت غالب» أكثر ثراء وغنى من شخصية ولادة، لأنها تبدو فاعلة في الأحداث ومؤثرة فيها، بل وصانعة لها على نحو من الأنحاء. فإذا عرفنا أنها ذات أصل إسباني وولدت لأمير عربي من غانية إسبانية فحملت تعصب الإسبان وحقدهم على العرب، وأخذت تصنع المكائد وتدس الدسائس، وتتعرض من أجل ذلك للحبس والملاحقة والطرد أو الهرب، وتسعى في كل الأحوال للاستحواذ على ابن زيدون عاطفيًا قبل ظهور ولادة في حياته وبعد ظهورها.. نجد شخصية «عائشة» أكثر حيويّة وأكثر قدرة على تقديم نفسها من الداخل، بل إنها تكاد تكون الشخصية الوحيدة التي نمت نموًا فنيًا معقُولاً، وإن لم يغفل الكاتب عن التدخل في رسمها من الخارج بين الحين والحين كأن يقول مثلاً على لسان أحد المتحاورين، واصفًا إيّاها بالغيور التي تظهر غير ماتبطن:

«**أعرفها** وأعرف أنها فتاة غيور، تشهر للناس غير ماتبطنَ، وأن لها نفس نمِرة في جسم امرأة، وأن صاحبك ابن زيدون صبٌّ بها مفتون»(١٦).

وهذا الوصف تبين معالمه عبر حركة الأحداث ونموّ شخصية عائشة عبر الرواية، ولكن المؤلف يأبى إلا أن يطمئننا مقدّمًا على أخلاق الشخصيات وطبائعها، وربما مصائرها أيضًا.

وتقترب من شخصية «عائشة بنت غالب» شخصية أخرى لها دورها المثير في

الرواية، وتبدو وقد نمت نموًا فنيًا أقرب إلى المعقولية أيضًا، أعني شخصيّة «نائلة الدمشقية»، وتكاد تكون شخصية موازية لعائشة بنت غالب. فإذا عرفنا أن الأخيرة يمكن أن تقف بجانب شخصية ابن زيدون لتؤدي دورها في الأحداث، فشخصية نائلة الدمشقية تقف إلى جانب ولادة لأداء دورها أيضًا. ونائلة امرأة عجوز «خنقت الستين» – وفق تعبير المؤلف – تهتم ببقايا جمالها «ولم تجد الأدهان والأصباغ في إصلاح ماأفسد الدهر إلا قليلاً»(١٧) ويصفها من الخارج أيضًا بقوله: «إنها امرأة بارعة أديبة لها أسلوب عجيب، لايوصد في وجهها باب، ولاتخلو منها ندوة، و لاتحجب دونها أسرار القصور، ودارها ملتقى شباب قرطبة، حتى لكأنها حينما يئست من بشاشات الشباب أرادت أن تراها في سواها، والغريزة إذا عجزت قنعت بالنظر واكتفت بالخيال»(١٨). وامرأة كهذه تبدو مؤهلة للعب دور كبير وبخاصة على مستوى القصور ومايجرى وراء نوافذها، وقد قامت بهذا الدور بالفعل في توجيه حركة ابن زيدون وولّادة، ومواجهة عائشة وعميلها الإسباني «أسبيوتو» وكذلك شفاعتها لدى المحاكم والأمراء والوزراء والكبراء والحراس، وكلمتها المسموعة لدى الجميع .. كل ذلك جعل. من شخصيتها قوية جارفة وفاعلة بصوره أفضل بكثير من شخصيتي ابن زيدون وولادة، بل إن الأخيرين يبدوان أسيرين لإرادتها الحديدية الصلبة التي تحتال على تحقيق مآربها بكل الحيل، حتى لو جاءت حيلاً ساذجة في بعض الأحيان وغير ممكنة(١٩).

وثمة ملاحظة نستشعرها نحن القراء، وهي قوة شخصية المرأة بصفة عامة في الرواية. وضعف وسلبية الرجل إلى حد كبير، بل إن تأثير النساء على الحكم ورجال الدولة يبدو مسألة طبيعية، ولعل تأثير «نائلة الدمشقية» على «ابن جهور» حاكم قرطبة بالرغم من تزمّته وجفوته أبرز الأمثلة، بل إنها تقول عنه إنه:

«من أطوع الناس لي عنانًا، وهو في يدي كالعجينة في يد الخباز»(٢٠).

ويبدو أن وجود المرأة التي تسمى في أيامنا «سيدة مجتمع»، وإقامة الندوات الأدبية والحفلات اللاتي تقام في قصورهن ودورهن، كان وراء ازدهار قوة المرأة وتأثيرها في المجتمع، ويكفي أن نرى جمعًا غفيرًا من كبار قرطبة يتجمع في حفل

لنائلة: «وجاء المساء وتوافد على القصر وزراء قرطبة وعظماؤها وشعراؤها وأدبيات قرطبة وكرائم أسرها. وكان بين الجمع من كبار المدعوّين أبو الوليد محمد بن عميد الجماعة، وأبو حفص بن برد، وأبو مروان بن حيان المؤرخ، وابن زيدون، وابن عبدوس وابن الحنّاط الكفيف الشاعر الطبيب، وكان بين المدعوات أم العلاء الحجازية الأديبة الشاعرة، ومريم العروضية مولاة ابن غَلْبُون، وقد ازدان الجمع بكثير من الفتيات اللاتي نشأن في النعيم، ودرجن في باحة العزّ والثراء، وصوّرهن الله فتنة لخلق الله في هذه الأرض، والجمال العربي الإسباني مزيج من سحر الشرق وقسامة الغرب، وصورة لاتستطيع أن تبدعه الصحراء...»(٢١).

إذاً صفـوة المجتمع في منزل تلك المرأة المؤثرة والفاعلة، بينما لانجد رجلاً في الرواية يملك مثل هذه الشخصية المؤثرة الفاعلة، حتى على الجانب الإسباني نجد الشخصية الأساس وهي شخصية الجاسوس «أسبيوتو» عائمة، مجرد طالب جاء يدرس الطب في قرطبة على يد ابن زهر، ويتصل سراً بعائشة بنت غالب، من أجل القضاء على العرب (لانعرف كيف؟) وينهار عند اكتشافه الذي بدا سهلاً وسريعاً على الرغم ممايفترض في الجاسوس من نباهة ومكر واستعصاء على السقوط السريع.. ولكن سقط وانتصرت عليه نائلة بعد أن اكتشفته مبكراً، ويكتفي المؤلف بوصفه - كالعادة - من الخارج. «وكان اسبيوتو في نحو السابعة والعشرين، قصير القامة، نحيل الجسم، تدل ملامح وجهه على الشرّ والقسوة، وإن سترها بغشاء، الذلّة والتواضع»(٢٢).

ومن الطريف هنا، أن الكاتب يجعل من العرق والجنس أساساً للأصل الكريم أو الأصل الوضيع، وحكاية «الأصل» هذه تبدو ملحّة في أكثر من موضع وأكثر من رواية لدى الجارم، نجد هنا في «هاتف من الأندلس» و «غادة رشيد» أيضًا.

فهـو يرى أن اسم «أسبيوتو» الإسباني يكفي ليصمه بالعار والدلالة على سوء أصله(٢٣) وكذلك نرى هذا الأصل الإسباني سبباً للؤم المنبت الذي نبتت فيه «عائشة بنت غالب» «إنها إسبانية الأصل لئيمة المنبت جاسوسة»(٢٤).

بل إن هذه القضية تبدو وكأنها مصدر الجمال النادر عند المؤلف، عندما يحدث عن

الفتيات الجميلات اللاتي تمتزج في دمائهن الأصول العربية والإسبانية، وسبقت الإشارة منذ قليل إلى نصٍ يتحدث عن حفل لنائلة الدمشقية تكلمَ فيه المؤلف عن فتياته التي ازدان بهن الحفل ويرى فيهن اجتماع الغرب والشرق معًا. يقول: «وقد ازدان الجمع بكثير من الفتيات اللاتي نشأن في النعيم، ودرجن في باحة العزّ والثراء، وصورهن الله فتنة لخلق الله في هذه الأرض، والجمال العربي الإسباني مزيج من سحر الشرق وقسامة الغرب، وصورة لما تستطيع أن تبدعه الصحراء الجافية إذا نعمت بالظل والماء...»(٢٥).

وحين أشار إلى أصل «عائشة بنت غالب» وكونها من أب عربي وأم إسبانية، ردَّ كالعادة إلى أصلها الإسباني كل المعايب والأخلاق الذميمة والصفات الوضيعة، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: إذا كانت عائشة قد ورثت عن أمها كل هذا ألم ترث عن أبيها شيئًا؟ وهل من الضروري أن يكون ذوو الجنس المختلط شائهي الفكر والسلوك والخلق؟ مجرد سؤال، بالرغم من أن الكاتب قد جعل الإنجليز الخلص يتمصَّرون ويدافعون عن مصر في روايته «غادة رشيد» دون أن يضع «فيتو» على أخلاقهم وسلوكهم، وهو أمر غريب حقًّا سنتناوله في حينه إن شاء الله(٢٦).

وهناك شخصيات هامشية لها قوة مؤثرة أحيانًا بالرغم من هامشيتها أو ثانوية أدوارها، وأخص منها «العرافة» أو قارئة الكفّ، وهي شخصية موجودة في رواية «هاتف من الأندلس» وفي «غادة رشيد» أيضًا وتقوم بالتنبؤ بماسيأتي من خلال ماتطرحه من إشارات تعليقًا على قراءة خط الكف. إنها لاتستطيع أن تتنبأ بماسيأتي بصراحة ووضوح قاطعين، ولكنها تومئ وتشير من خلال الرمز، ماسيجري لأبطال الرواية وبخاصة في مجالي الملك والحبّ، ومن العادة أن يكون لنبوءتها أثر وتحقق(٢٧).

بل إن الكاتب يذهب إلى بيان دور العرافين والعرافات صراحة حين يقول: «هؤلاء العرافون لهم لمحات من الغيب، ولكنهم لايحسنون تفسيرها. يقولون لرجل، أبشر ستكون لك شهرة ولاسمك ذيوع، فيذيع اسمه في جريمة! ويقولون لآخر، إنك ستترك في بيت الحاكم، فيسجن !»(٢٨).

كـذلك فهناك شخصيات هامشية يلجأ إليها «الجارم» عادة في رواياته التاريخية بصفة عامة وفي «هاتف من الأندلس» بصفة خاصة، وهي شخصيات الشعراء والنقاد، فهم كثيرون ومبثوثون بمناسبة ودون مناسبة لإلقاء الشعر والحكم عليه، ويمكن الاستغناء عن كثير مماجرى على ألسنتهم، إذ لا علاقة له بالرّواية إلا منْ مُنْطَلَق أنّ بطلها الرئيس «شاعر»، وهو ابن زيدون.

ومهما يكن من أمر هذه الشخصيات وغيرها، في هذه الرواية أو غيرها، فإن لجوء الكاتب إلى الوصف الخارجي، أو التسطيح في رسمها لم يكن نابعًا عن عجز أو تقصير، بقدر ماكان فهمًا شائعًا للفن الروائي في زمانه وعند الرّوّاد من أمثال المنفلوطي علي وجه الخصوص سنتوقف عند ملامح التأثر بالأسلوب المنفلوطي في الروايتين إن شاء الله. «وأيضًا؛ فإن الرغبة الملحّة في تحريك الحاضر من خلال الماضي قد جعلت الجارم، وغيره، يقف همّهُ على الغاية النبيلة لروايته غير عابئ بأصول الفن الروائي، من ناحية بناء الشخصية، أو بناء الرواية على وجه الخصوص، وإن كان قد اهتم بالأسلوب، سردًا ووصفًا على نحو ماسنبينه في موضعه إن شاء الله.

٤ – تصوّر رواية «غادة رشيد» قطاعات الصراع المختلفة في مرحلة الحملة الفرنسية وماتلاها حتى الحملة الإنجليزية المعروفة بحملة «فريزر» (١٨٠٧م)، فهناك قطاع المصريين الذي يمثله أو التي تمثله «زبيدة البواب» و «محمود العسال» وأسرتاهما وعلماء الأزهر، وقطاع الأتراك. ومعهم المماليك – ويمثلهم «عثمان خجا» حاكم رشيد، وقطاع الفرنسيين ويمثلهم «نابليون بونابرت» والجنرال «مينو»، والجنرال «كليبر» بالرغم من عدم وضوح شخصيته، وكذلك فهناك من يمثل العنصر الإنجليزي من خلال «أوليفر نيكلسون» وابنته لورا، أما العرب أو القطاع العربي فيمثله سليمان الحلبي وزميله.

وكما نرى؛ فإن جميع قوى الصراع السياسي والعسكري موجودة على صفحات الرّواية، وقد اجتهد المؤلف أن يربط خيوط الصراع بين هذه القوى بإحكام حتى يحقق التشويق والغاية الفنية في عرض الأحداث التي مرت بها مصر في تلك الفترة.

ويلاحظ أن رواية «غادة رشيد» من أوائل الروايات التي كتبت عن رشيد أو مصر في مواجهة الحملة الفرنسية إن لم تكن أولها على التحقيق(٢٩).

تعدّ «زبيدة البواب» من أبرز الشخصيات التي تمثل قطاع المصريين، وهي فتاة، وحيدة أبويها، وتجتمع فيها كل الصفات التي تجعل منها جميلة ومحبوبة ومرغوبة (نفس الصفات تقريبًا التي قدّم بها المؤلف شخصية ولادة بنت المستكفي في هاتف من الأندلس)، ويضاف إلى ذلك إنها «طموح» ترفض حب ابن خالتها «محمود العسال»، كما رفضت الكثير من الخطّاب الذين توافدوا على أبيها لخطبتها، وكلهم كان مؤهّلاً وكفئًا .. ولكن لسبب ما - غير مبرر فنيًا - لم تقبل أحدًا، ورأيناها تطمح إلى المجهول، وتعتمد على كلام «العرافة» لتأكيد موقفها، فقد تنبأت لها بحظ عظيم، وقرأت في كفها «خط الملك»(٣٠)، وتظل على موقفها «تردّ كل توسّل بالإدلال، وكل إغراء بالرفض والإباء»(٣١)، وحين يصل «مينو» مع الحملة إلى «رشيد» يتم زواجها بعد إسلامه تبدو غير مثيرة إلاّ على ألسنة الناس، والمثير في الأمر أن والدها يختفي من رشيد احتجاجًا على هذا الزواج والمرفوض من جانبه فيما بعد مجاهدًا عظيمًا ضد الحملة الفرنسية على أرض القاهرة وفي حيّ الأزهر على وجه التحديد، حتى يموت شهيدًا.

يبدو زواج «زبيدة» من «مينو» غير واضح الملامح، ولكنه بصفة عامة زواج غير موفق، لأن «زبيدة» كانت تطير إلى السلطة، وقد تحققت لها السلطة، ولكنها لم تسعد في زواجها أبدًا بالرغم من كونها أصبحت أمًّا، فقد هزمت الحملة، واضطرت مرغمة على السفر إلى فرنسا، وبدت شخصيتها بصورة عامة «امرأة بلاعواطف»، أو لا تعبأ بقلبها وانتمائها وعواطفها الحقيقية من أجل السلطان والجاه .. وقد رأيناها- بطريقة غير مبررة أيضًا اللهم إلا لسبب الفشل في الزواج، تحاول أن تكفر عن سيئاتها وأخطائها .. ولكنها تموت كمدًا، وبطريقة دراماتيكية، مع صديقتها الإنجليزية «لورا» !

وشخصية «زبيدة» أكثر الشخصيات في الرواية حيوية وثراء، ولكنها للأسف كانت غامضة في بعض الجوانب، وغير مقنعة في بعضها الآخر .. ولعل المؤلف كان

يتفادى أن يقدمها بصورة أخرى ترسّبت في الوجدان المصري منذ زمن الحملة، وتتحدث عن «زبيدة» الغانية التي تصرع الرجال بهواها.. ولكنه آثر أن يجعلها فاضلة بالرغم من تصرفاتها التي لاتتسق مع الشعور الوطني.

في مقابل شخصية زبيدة تبدو شخصية ابن خالتها «محمود العسال» متزنة ورائعة، فهو مثال للشاب المصري المجاهد، «الذي يرفض الخنا، والذل»، على المستويين الشخصي والعام. كان يحب زبيدة ويتمنى الزواج منها، ولكنها رفضته، فواصل حياته من أجل وطنه دون أن تكسره الهزيمة العاطفية، وشارك في الجهاد ضد الفرنسيين على أرض رشيد وفي قلب القاهرة، وتزوج من الإنجليزية «لورا نيكلسون» التي أحبّته وأحبت المصريين، بل جعلها المؤلف «مصرية تماماً»! وكانت مواقف محمود وجهاده مثالاً لصلابة المصريين الأصلاء في مواجهة العدوّ مهما اشتدت ضراوته وقسوته، والتضحية بكل غالٍ ونفيس في سبيل الله والوطن.

بيد أن شخصية «محمود»، وكذلك معظم شخصيات الرجال، تبدو مسيّرة وفق نظام دقيق لاتحيد عنه، بل إن بعضها أقرب إلى السلبية، على عكس الشخصيات النسائية، فهي إيجابية غالبًا، ولها قدرة على تحريك الأحداث، حتى أولئك اللاتي في خدورهن ووراء المشربيات يصنعن الأحداث بتفكيرهن وتخطيطهن!

هناك شخصيات ثانوية في قطاع المصريين قدمها المؤلف، لتكون أنموذجًا للضعف الإنساني، أو النفس البشرية في حالة ضعفها واستسلامها للإغراء، أو سعيها للكسب بأية صورة، وتمثله شخصية «على الحمامي» الأخ غير الشقيق لزبيدة، الذي يقوم بدور مشبوه في موالاة المحتل وإرهاب التجار واغتصاب بضائعهم، بل إنه يحرض «مينو» على المزيد من ظلم المصريين مهما صرخوا أو استغاثوا لأنه يرى ذلك طبعًا فيهم(!!)، يخاطبه قائلاً:

«**كن** معهم ياسيدي الشريف كما أنت ولاتبال مايقول الناس، فإنهم اعتادوا الظلم فإذا رفع عنهم اشتاقوا إليه وأسفوا على أيامه الماضية»(٣٢).

وواضح أن لغة «الحمامي» نفسها، ومن خلال مخاطبته لمينو بـ «سيدي الشريف» تؤكد اتجاهه نحو إدمانه الذل، وحبّه للعبوديّة، وإحساسه بالدّونية، لايردعه عنها

ضميرًا أو خلق أو وطنية . . وللأسف فإن المؤلف لم يتدخل في مصيره، ولم يقل لنا إلى أين ذهب، وإنما اكتفي بعرض نمط سلوكه وحياته الانتهازية دون أن يزيد .

ويبدو المؤلف مغرمًا باستضافة الشخصيات الأدبية في ثنايا رواياته التاريخيّة، بل إن معظم أبطال رواياته يتحركون في مضمار الحركة الأدبية عمومًا، والشعر خصوصًا، وهو هنا في رواية «غادة رشيد» يستضيف شخصية شاعر زجال هو «عبد الله البربير»، شاعر رشيد وزجالها، وقد جاءت استضافته هنا موفقة للغاية، حيث كان شعره وزجله يعبّران عن الأحوال التي يمرّ بها الناس، ويسجل ماجرى من الحملة الفرنسية وويلاتها بالنسبة لمصر وأهل رشيد .

ويعـدّ علماء الأزهر في رشيد أو القاهرة من أهم قطاعات المصريين التي لعبت دورًا كبيرًا في مقاومة الحملة الفرنسية والتأثير في الأحداث، وقيادة الشعب لجهاد أعداء الدين، وقد عرض «الجارم» عبر روايته رأيه في علماء الأزهر واحدًا واحدًا، ويظهر لنا تحامله على الشيخ عبد الله الشرقاوي واضحًا، وكذلك إشادته بالشيخ عبد الرحمن الجبرتي ووطنيته وإخلاصه لوطنه، ولعله في ذلك وبخاصة في عدائه للشرقاوي كان مدفوعًا ببعض الآراء السريعة التي لم تدرك دوافع وخلفيات تحوّل بعض العلماء من مقاومة نابليون إلى الاستجابة لرغباته، ممايحتاج إلى تفسير وتحليل(٣٣)، يقول محمود العسال للورا نيكلسون:

«أما هذا يالولا فهو الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيس الديوان الخصوصي وشيخ العلماء، وهو رجل أذله حب المال والجاه، فتعلق بأذيال الفرنسيين، لايهمه أخربت البلاد أم عمرت، وهذا هو الشيخ محمد المهدي، وهو داهية واسع الحيلة، يتملّق الفرنسيين ليجتلب رضاهم، ويصانع المصريين بالدفاع عنهم، والسعي في تخفيف ويلاتهم. أما الشيخ الأسمر النحيل الجسد فهو رجل عظيم يالورا، إنه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، المؤرخ الكبير، علمت أنه يدون الحوادث كل ليلة قبل أن يذهب إلى فراشه، وله حكم دقيق عادل على الوقائع والأشخاص، ولو علم الفرنسيون بتاريخه لأحرقوه مع هذا التاريخ. . »(٣٤)

وواضـح أن الجارم قد اعتمد على الجبرتي في نظرته للعلماء وشيوخ الأزهر،

وهي نظرة فيها من الانفعال العاطفي أكثر مما فيها من التأمل العقلي، فقد كان الموقف بالنسبة للجميع خديعة استعمارية متقنة ساعد عليها ظلم المماليك وعسفهم تجاه الناس بعامة، والعلماء بخاصة.

ومن الملاحظ أن اهتمام الجارم بعلماء رشيد كان منصرفًا بصورة مركزة إلى أسرته هو، لذا نجده في أكثر من موضع يشير إلى نسبه إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وإلى حيازة أسرته للشرف والجمال، ويأتي ذلك في معرض تعريف «مينو» بقيمة رشيد وأهلها:

– في رشيد من الأسر من ينتمي إلى النبي محمد ؟

– كثير جدًا لأن أهلها من قريش نزحوا إلى رشيد بعد فتح العرب بقليل، ولكننا نريد شيئين:» الشرف والجمال، وهذان لايجتمعان في رأيي إلا في أسرتين: أسرة الشيخ الجارم، وأسرة السيد محمد البواب . .»(٣٥).

بل إن «الجارم» يسعى لإبراء ذمة أسرته من مصاهرة المحتل، مع بيان منزلتها في نفوس الناس، فيتحدث عن عرض الشيخ الجارم الجدّ، على الطالبين: عثمان شبابك وحسين أبي السعود زواج ابنتيه، حتى لايتزوج «مينو» من إحداهما. قال أحدهما للشيخ:

«هذا شرف كبير يامولانا يطير اللب ويثير العجب، وإنما نحن خادماك اللذان يتنافسان في حمل نعليك، فإذا تفضلت علينا بهذه الكرامة فليس لنا إلا أن نشعر بأن ماأصبناه من خير إنما هو بركة من بركاتك ونفحةمن نفحاتك . ثم انقضّا على يديه لثمًا وتقبيلاً . .»(٣٦).

وفي كل الأحوال فإن المؤلف وضع العلماء، سواء في رشيد أو القاهرة، في صورة مثلى ومضيئة بصفتهم رمز من رموز المقاومة والجهاد في قطاع المصريين الذين تعرّضوا للحملة الفرنسية والحملة الإنجليزية.

أما قطاع المماليك والأتراك – شركاء المصريين – فيمثلهم «عثمان خجا» حاكم رشيد من قبل الدولة العثمانية، وواليها مراد بك (حاكم مصر الرسمي)، وكان عثمان

«رجلاً ظالمًا جمَّاعًا للأموال أين وجدها ومن أي طريق وصل إليها.»(٣٧) وقد اصطلى أهل رشيد تحت حكمه بنيران الظلم حتى ضجّوا، ومع قدوم الحملة انكشفت حقيقته، أو كشف هو عن حقيقته كجبان يفرّ أمام العدوّ ولا يثبت عند الشدائد، ومن المفارقات أن يحاول الدفاع عن نفسه فيتهم العرب أو المصريين بالضعف وعدم القدرة على أهل رشيد بأنه هو السبب في ضعف حصون المدينة، وأن ظلمه لهم كان وراء قتل الهمم، «إنما العار على من يطلب من المذبوح أن يدافع عن نفسه»(٣٨).

وكانت نهاية «عثمان خجا» الإعدام شنقًا نتيجة ظلمه، وفراره من مواجهة المحتلين، ويشمت فيه أهل رشيد، وتتحقق نبوءة العرافة التي رأته معلقًا بين السماء والأرض، فَعُلّق على حبل المشنقة.

بيد أن المؤلف في عرضه لقطاع المماليك والأتراك يلحّ على كشف معايبهم ومسالبهم، ويراهم قد استأثروا بالجاه والسلطان « إن الحكم في مصر قسمة بين البشوات والبكوات، ولن يناله مصري أنبتته أرض مصر. إننا نعيش في بلادنا غرباء نتلقف فتات مايتركون. إن ابنة عثمان خجا تأنف أن تزور بيت رشيديّ كيفما علا مقامه وعظم جاهه. إنها لاتسمينا إلا بالفلاحين كأن الله خلقنا من طين وخلق الترك من مسك وكافور..»(٣٩).

ويواصل حملته على المماليك والأتراك من خلال بيان الأحوال لدى عامة الناس، وهي تظهر مدى الظلم الذي كان يوقعه «عثمان خجا» وأعوانه، ويعانيه أهل رشيد: «الناس لايجدون غياثًا في هذه الأيام إلا العلماء والأعيان. وويل لهؤلاء العلماء والأعيان إنهم أصبحوا لا حول لهم أمام ظلم عثمان خجا وظلم أعوانه وعصابته. اذهبوا أيها المساكين اذهبوا، فإن عثمان خجا لن يرضى إلا بامتصاص آخر قطرة «من دمائكم، وهو غرابٌ مشئومٌ لايستريحُ إلاّ بعد أن يرى المدينة قفرًا يبابًا، اذهبي أيتها الضحايا المنكوبة، فإن مراد بك إن رضي بقضم اللحوم، فإن وكيله خجا لايشبعه إلا التهام الجلود. ماهذا الجدّ العاثر يارشيد؟ أإذا اقتسم إبراهيم بك ومراد بك أرض مصر لاتكونين إلا من نصيب مراد بك الفاتك الجبار، الذي لم يُبْق بالبلاد قائمًا ولاحصيدًا. والذي إذا فرّ منه برغوث في مدينة أحرق المدينة ليقتله»(٤٠).

وعلى أية حال، فإن الكاتب مولع برسم صورة لأحوال البلاد والعباد، لعله يريد بذلك أن يقول إن ماجرى من احتلال ونكبات كان بسبب هذه الأحوال المتردّية والمنهارة، كما فعل الجارم في «هاتف من الأندلس» حين رسم صورة لما يرى في المجتمع سواء في المجالات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية؛ فإنه هنا لاينسى أن يرسم صورة للعلاقة القائمة بين الناس أو الشعب في رشيد، وبين الحاكم أو الحكام العثمانيين والمماليك مدلّلاً على ماأصاب الناس من قهر وقحط على يد هؤلاء الحكام الطغاة الأنبياء الذين يحرقون مدينة بأكملها نظير خطأ صغير، ويشير الكاتب إلى المثل الذي يتحدث عن الغبي الذي يحرق اللحاف بسبب برغوث، فيصوّر طغيان المماليك الذين يحرقون مدينة بأكملها بحثًا عن برغوث فرّ من تحت أيديهم .

وفي موضع آخر يتناول المؤلف وضع مصر كلها تحت حكم العثمانيين والمماليك، فيصوره على لسان «محمود العسال» بقوله :

«إن هؤلاء المماليك مصابون بجنون التدمير والتخريب، وكم لاقت منهم مصر، وتُلاقي إن امتد بهم الحكم. إني لم أر بلدًا – فيما قرأت من تاريخ – فُدح بمثل هذا الحكم، إن صح أن يسمى مانحن فيه حكمًا. ولقد ضاعت مصر بين ضعف الدولة العثمانية وجهلها، وغباوة المماليك واستبدادهم. إن مصر اليوم تحكمها طائفة من اللصوص الأشقياء الذين لايقف شيء أمام جشعهم ولايزعهم شرف ولادين، نهبوا كل مافي أيدي المصريين، ولم يعطوهم شيئًا، فالوباء المتفشي في الناس، أشدّ من ظلم المماليك، والجهل الذي عطل عقولهم أشدّ من هذين»(٤١).

والصورة بلاشك قتمة ومروّعة، التقى فيها ضعف الدولة العثمانية باستبداد المماليك، فصار الشعب فقيرًا جاهلاً، وتلك أسوأ الصور التي تصل إليها الشعوب، وبالرغم من هذه الصورة القاتمة والمروّعة، فإن الجارم لم يملك إلا أنصاف المماليك والترك في مواجهة الفرنسيين الذين كانوا يدكون أرجاء القاهرة بوابل لاينقطع من النيران والقذائف حيث شمروا عن سواعدهم «وصالوا في المدينة وجالوا. وأخذوا يرسلون النجدات ويقوون العزائم»(٤٢).

ويمثل القطاع العربي «سليمان الحلبي» وزميله «أحمد أغا»، ويبقى «سليمان

الحلبي» الشخصية الإيجابية الفاعلة التي تهزّ الوجود الفرنسي في مصر، حين قام باغتيال «كليبر» قائد القوات الفرنسية في غياب نابليون. وهو طالب أزهري جاء إلى مصر لدراسة علوم الدين واللغة، ولكن ماجرى أمامه من فظائع الحملة ضد إخوانه في مصر وضد الإسلام كان حافزًا على ماأقدم عليه، من خلال فكرة الجهاد التي تبلورت آنئذ لدى الشباب بعامة، بوصفها السبيل الوحيد لتجاوز العجز الذي أصاب الأمة في مرافقها ومؤسساتها (وفي مقدمتها الجيش)، وقد ألح الكاتب من خلال سليمان الحلبي وأحمد أغا على هذه الفكرة، ولعل الحوار التالي بينهما، يكشف جانبًا من ذلك:

« . . جلس أحمد أغا على ركبتيه، وقال: سليمان ألا تستطيع أن تعمل عملاً عجز عنه الجيش؟!.

– هذه كانت آمالي منذ سنوات، ولكن النفس الإنسانية تتبلد باليأس وتثبيط العزائم.

– إن نفسك فوق النفوس، وهي أبعد من أن تنالها يد اليأس. لقد قرأت كثيرًا في سير الأبطال، وتشوّقت كثيرًا إلى كأس الشهداء ومـاأعد الله لهم من نعيم مقيم. إن الإسلام يدعوك لنصرته. وإذا ضاعت مصر ضاع الحجاز وانقطع السبيل إلى بيت الله، وضريح رسول الله . . »[٤٣].

وواضـــح أن الجارم من خلال هذا الحوار يربط بين مصير (مصر) ومصير الجزيرة العربية من خلال إطار عام هو الإسلام، أي أنه كان على وعي بفكرة المصير المشترك للأمة تحت ظلال الإسلام وهذه الفكرة تتعمق لدي «الجارم» في مشروع للبعث يراه مرتكزًا على عنصري الدين والأخلاق «ولكني أنظر إلى ناحيتين لوحافظ المسلمون عليهما لبعث الإسلام عزيزًا كما كان. هما: الدين والأخلاق» (٤٤) وتبقى شخصية «سليمان الحلبي» رمزًا للتضحية التي تصل إلى حدّ الشهادة من أجل المصير المشترك ولكنها من الخارج كانت واضحة حين أدت ما عليها أو نفذت ما يفرضه الواجب.

هنـاك شخصيتان تلعبان دورًا هامًّا في الرواية. وهما شخصية «أوليفرنيكلسون» «ولورا نيكلسون» ابنته، وهما إنجليزيان أو يمثلان القطاع الإنجليزي في شخصيات

الرواية، وقد بدا المؤلف متعاطفًا مع الإنجليز من مطلع الرواية، وحتى آخرها، ولم يتوقف وقفة إدانة إلاعندما جاءت أساطيل فريزر أو «عمارة إنجليزية» كما كانت تسمى الأساطيل. وأوليفرنيكلسون، تاجر إنجليزي عاش في رشيد، حتى أصبح واحدًا من أهلها، وإن احتفظ بمقوماته الأصلية، وقد نشأت معه ابنته لورا وتشبعت بآرائه وأفكاره، بحكم ارتباطها به بعد وفاة أمها، وتحب «محمود العسال»، وتتزوجه بعد أن رفضته زبيدة وتزوجت من الجنرال «مينو» الذي حكم رشيد من قبل نابليون، وتموت في نهاية الرواية موتًا دراماتيكيًا مع زبيدة كان حديث أهل رشيد كلها حتى يومنا.

والذي نود أن نشير إليه أن الكاتب قد جعل نيكلسون وابنه يخرجان عن طبيعتهما الإنجليزية إلى طبيعة المصريين، ولعله بذلك أراد أن يثبت أن مصر قادرة على احتواء وهضم كل جسم غريب عنها وتشكيله من جديد تشكيلاً يتلاءم مع طبيعتها(٤٥).

ونشعر بصفة عامة أن «الجارم» يتعاطف مع الإنجليز كأمة، ويرى أن النجاة من فرنسا على أيديهم آتية، بل إنه يشير صراحة على لسان لورا وأبيها أن إنجلترا «لن تغضي طويلاً عن رجل (يقصد نابليون) يريد أن يعبث بسيطرتها على البحار»(٤٦).

وواضح أن «الجارم» يدرك مدى أهمية إنجلترا، وغاياتها أيضًا كدولة كبرى تنازع فرنسا السيادة على البحار والبلاد، ولذا نراه يتحفظ تحفظًا خافتًا على دور إنجلترا بالنسبة لمصر بالرغم من تعاطفه مع الإنجليز كما سبقت الإشارة كما نرى في هذا الحوار الذي يدور بين «نيكلسون» والشيخ عبد الرحمن الجبرتي»:

– مارأي سيدنا الشيخ في الإنجليز ؟

– أخاف أن تكون لهم نية في مصر، وأنهم يركبون الترك مطيّة لأغراضهم .

– إن الإنجليز قوم شرفاء .

– وماشأن هذا بالشرف؟ إن للكون نظامًا، والفوز دائمًا للقويّ ياسيدي .

– هذا الذي يسميه أهل أوربا: نظام بقاء الأصلح .

– سبقهم إلى ذلك القرآن الكريم: «فأما الزّبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث

في الأرض» وقال عز شأنه. «إن الأرض لله ورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»(٤٧).

بالرغم من أن إقحام الآيات القرآنية في هذا الحوار كاستشهاد لم يكن موفقًا، لأن هناك فارقًا بين البقاء للأقوى الذي يؤمن به الناس ومنهم الإنجليز، والبقاء للأصلح الذي يؤمن به الإسلام ولا يؤمن به الإنجليز، فإننا ندرك أن «الجارم» على لسان الشيخ الجبرتي واعٍ لما يفكر فيه الإنجليز من سيطرة على مصر، واستخدام الأتراك لتحقيق هذه الغاية.

وينبغي على كل حال أن نفرق بين الإنجليز الذين عاشوا على أرض مصر (نيكلسون وابنته)، وتطبعوا بطباع أهلها وعاداتهم، وبين الإنجليز كأمة لهم أهداف وغايات ومصالح، أسفرت عن وجهها أخيرًا في حملة فريزر (١٨٠٧م)، والتي قاومها الشعب المصري وفي مقدمته أهل رشيد أيضًا.

وفي هذه الحملة، فإننا نجد «لورا نيكلسون» الإنجليزية تحث زوجها «محمود العسال» على مواجهة قومها الغزاة، تدفعه إلى ذلك بكل قوة:

«.. وقالت: لايازوجي الباسل أنا أعرف أن شيئًا في الأرض أو في السماء لن يحول بينك وبين الذوْد عن وطنك، ولو كان ذلك الشيء حبي، ولكنك تجاملني يامحمود، تجامل زوجتك التي ليس لها سواك، والتي تحبّ فيك الهمة ومضاء العزيمة.

– نعم أجاملك يالورا، ولكني لو لم أنل رضاك لسرت إلى القتال مشتت القلب مثقلاً بالهموم.

– لاياحبيبي سر على بركة الله مجمّع القلب باسم الوجه وعد إلى زوجتك الوالهة مظفرًا منصورًا»(٤٨).

وواضح أن المؤلف أخرج لورا عن طبيعتها الإنجليزية تمامًا، وحولها إلى مصرية تمامًا، وإن كان قد اتخذ من علاقة الحب ورابطة الزواج بين لورا ومحمود سبيلاً إلى هذا التغيير.

وينبغي أن نشير إلى حيوية شخصية «لورا» نسبياً، حتى موتها – كما سبقت الإشارة جاء دراماتيكياً، ويحسن هنا أن ننقل مشهده فقد كانت عند زوجها «محمود العسال» الذي استشهد دفاعاً عن رشيد أمام جحافل الإنجليز، حين ذهبت زبيدة لتزور القبر «وحين نظرت زبيدة إليها من خلال الدموع صاحت :

لورا؟ أنت لورا؟ ونظرت نظرة المذهول **وقالت** :

زبيدة؟ أحقاً أنت زبيدة؟ ثم غلبهما البكاء فأطرقتا، وطال هذا الإطراق، حتى إذا قلق سرور (الخادم) لطول صمتهما قام فرأى لهوله أنهما فارقتا الحياة . .

وإذا ذهبت إلى رشيد اليوم وقصدت إلي مدفن شهاب، رأيت قاعة طال القدم على جدرانها، بها قبر نثرت عليه الأزهار ورأيت رخامة كتب عليها بخط الثلث الجميل:

(هذا قبر الشهيدين)» .(٤٩)

ويتضح من استعراضنا للقطاعات السابقة (المصريون والمماليك والأتراك والعرب والإنجليز) أنها في جانب، والفرنسيون في جانب آخر، قد اتفق أطراف الجانب الأول بالرغم ممابين بعضهم من خلافات على مقاومة الجانب الثاني، وأسهم كل بنصيب، فماذا عن الجانب الثاني هذا؟

اعتمد الجارم على «الجبرتي» في سرد وقائع الحملة، واهتم بوصف الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون «ضد المصريين» ويقدم لنا شخصيات الضباط البارزين في الحملة (نابليون، كليبر، مينو . .)من الخارج بالطبع .

ويصف وصول الحملة تفصيلاً كأنه يكتب منشوراً صحفياً، يتحدث فيه عن العمارة الفرنسية (السفن الفرنسية أو الأسطول الفرنسي) ووصولها إلى الإسكندرية ونزول الجيش الفرنسي، وحدوث مناوشات انهزم على إثرها الوطنيون بقيادة «محمد كريم» لتفاوت القوة بين الطرفين أما عندما وصلوا إلى القاهرة، فقد كان الفرنسيون – وقد امتلكوا القلاع والتلال حول المدينة يصبون عليها وابلاً لاينقطع من النيران والقذائف، يدك أرجاءها دكاً، وينشر الذعر والموت في كل مكان . . .»(٥٠)، ومع اشتداد المقاومة وسقوط الكثير من الشهداء، ومحاولة المصريين إنشاء معمل للبارود

ومصنع للأسلحة، فلم يغن ذلك فتيلاً أمام قوة الفرنسيين الجبارة «ومما زاد الحال سوءاً حصار المدينة وامتناع وصول الأقوات إليها، فجاع الناس، وانتشرت الأمراض، وخرجت النساء مولولات صاخبات باكيات، يصورن الهزيمة والذعر والمسغبة وصنيعة الأمل»(٥١)

لم يتوقف وصف الجارم للفظائع عند حدود مصر، وإنما تعداه ليصف مافعله الفرنسيون في بلاد الشام، ومن ذلك أمرْ «نابليون» بإعدام ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية دفعة واحدة بعد إلقاء السلاح، وبعد أن تعهّد لهم بعض ضباطه بسلامة أرواحهم إذا سلموا(٥٢)، وهي خسّة أو وحشية لاتليق بقائد عسكري نبيل .

وشخصيّة «نابليون» بالرغم من فظائعه ووحشيته تبدو في رواية «الجارم» أسطورية، ولايقرّبنا منها إلا من خلال تلك الهالة التي يصنعها له:«جميعُ قواده يجلونه ويخضعون له خضوع العبيد للسيد»(٥٣)، ولاينسى أن يشير إلى خداعه وعبقريته في مجالي الحروب والقتال، ولكنه مع ذلك يصفه بالطاغية، ويسجل هزيمته الساحقة أمام «أحمد باشا الجزار» في يافا، ثم فراره من مصر إلى فرنسا، ويبدو شامتًا فيه مصوّرًا خيبته وفشله؛ حتى أمام زوجته «جوزفين» وهي تدوس حبها له وتنسى ذكراه، كما يعرّض به وبنهايته في منفى جزيرة «سانت هيلانة»(٥٤).

أما «كليبر» فهو شديد الاعتداد بنفسه، وكان مولعًا بمظاهر الملك، وقد «فُدِح المصريون في أول عهده بفنون من الضرائب اعتصرتهم اعتصارًا، فزاد سخط الناس، وتأججت الصدور بالغيظ..»(٥٥)، وكانت نهايته المعروفة على يد «سليمان الحلبي».

ويبقى الجنرال «مينو» الذي خلف «كليبر» في قيادة الحملة بوصفه شخصيّة من الشخصيات المؤثرة والفعالة في الأحداث، ولكنها كما جاءت في الرواية تبدو باهتة وغير واضحة، لايهمها إلا البحث عن المتعة، حتى في علاقته مع زوجه «زبيدة» يبدو ذلك الرجل الغالب الذي يأمر فيطاع وحسب، بل إنه في تلك اللحظة الحرجة التي يتقرر فيها رحيل الفرنسيين عن مصر بموجب معاهدة متعددة الأطراف فإننا نراه يصمم على أخذ ابنه معه سواء برفقة أمه أو بدونها، دون أن نعرف شيئًا عما يدور

بداخله تجاه هذا الابن، أو أمه التي يتوجب عليها حسب إرادته - أن تسلم بمطالبه ورغبته. إنه في كل الأحوال ذلك الرجل العسكري الذي يبحث عما يريد دون أن نعرف الأسباب الدافعة أو نرى الصراع الذي يدور في أعماق روحه كإنسان يحمل نفسًا إنسانيّة تتعرض لحالات مدّ وجزر. لقد رأيناه من الخارج وكفى!

٥ - أقام المؤلف بناءه الروائي في روايتي «هاتف من الأندلس» و«غادة رشيد» على فصول، كل فصل يسلم لآخر، ويتابع من خلالها نمو الأحداث والشخصيات، وإذا شئنا الدقة؛ قلنا نمو الأحداث فحسب، لأن الشخصيات تولد غالبًا كاملة، وربما ولدت في سطرين اثنين فقط، ولهذا كانت الحوادث - ومعها الأفكار التي تجرى على ألسنة الشخوص - مثار الاهتمام في الروايتين، وكانت مناط التشويق والحبكة أيضًا، وربما كان ذلك بسبب انتماء العمل الروائي إلى التاريخ، ورغبة الكاتب في استيعاب ونقل الدرس التاريخي إلى الجيل الجديد ليعى أبعاده ومراميه، أي إن الغاية التربوية كانت وراء اهتمام الكاتب بالفكرة التاريخية أكثر من اهتمامه بالحركة الروائية.. وأعتقد أن هذا كان سببًا في بعض المزالق التي كادت تذهب ببناء العمل الروائي في بعض الأحيان كما كان وراء استطرادات وحشو وزيادات لالزوم لها.. أوتقديم أحداث بدون تمهيد..

فالكاتب في رواية «هاتف من الأندلس» مثلاً، بعد أن قدم لنا شخصية «عائشة بنت غالب» في الفصول الثلاثة الأولى، وأضاءها بما فيه الكفاية، يقطع الأحداث والشخصيات عن النموّ، ليتوقف في الفصل الرابع عائدًا للحديث عن جذور عائشة وقصة أمها الإسبانية دون مبرر فني أو موضوعي، مما كاد يهدم الرواية تمامًا، وكانت تكفي إشارة في سطور قليلة لهذه الجذور ليطرد النموّ الروائي دون أن يتهدد العمل الروائي كله.

وكثيرًا مايلجأ الكاتب للعودة إلى سرد الأحداث التي توقف نموّ العمل الروائي، ففي الفصل الثالث عشر من «غادة رشيد» مثلاً، يقول: نعود بالقارئ إلى القاهرة بعد أن قضينا معه وقتًا طويلاً في رشيد شهدنا فيه بعض حوادثها الجسام..(٥٦)، وهذه العودة تخل عادة بالتوازن الذي يفترض في تقديم الأحداث الروائية.

وأيضًا، فإنه يستطرد بكلام زائد، أوحشو لامبرّر له تحت إلحاح شرح الفكرة وتفسيرها ، كما نرى في حديثه عن فتح «المنصور» لمدينة «شنت ياقب» التي تنتمي إليها جذور «عائشة بنت غالب» ، فبعد أن صور الذعر الذي أصاب أهلها ، والفزع الذي ركبهم يقول معلّقًا:

«إن غريزة المحافظة على الحياة قد تنقلب جنونًا يؤدى بالحياة. أليست الفراشة تُلقى بنفسها في النار ، لأنها تراها مصدر الحياة؟ تلسع النحلة للدفاع عن بقائها ، وفي لسعتها موتها؟ ألايقتل المنتحر نفسه ، لأنه يحب الحياة؟ إن السفينه إذا أدركها الغرقُ جُنَّ ركابها ، وماج بعضهم في بعض ، فماتوا قبل أن يلتقمهم اليمّ ، والدار قد تشبّ فيها النيران فيقتل الذعر أهلها قبل أن تلتهمهم النيران ، والفأر من الثعبان الأرقم لوثبت قليلاً ماعدا عليه الثعبان ، والحق أن في الخوف من الموت موتًا ، وأن الذي يبذل الحياة توهب له الحياة»(٥٧). ويمكن حذف هذه الفقرة دون أن يتأثر السرد ، وإن كانت قيمتها في نفسها كبيرة ، وتعبّر عن نظرة عميقة للحياة والنفس البشرية.

ومثل الفقرة السابقة ماتحدث به على لسان الأهرام مخاطبًا نابليون بعد أن احتل مصر ووصل إلى القاهرة يريد أن يسخر منه ، ويؤكد له هزيمته القادمة لامحالة :

« . . وماهذا الذي مسّك فقذفت بخيرة رجالك في شرك لاخلاص لهم منه؟ نعم إن أربعين قرنًا مني تنظر إليكم ، ولكنها تنظر في دهشة مبهوتة لأنها ترى أن حب العظمة والسلطان لايزال ينقلب في الناس هوسًا وجنونًا. إنك لو نظرت في سفحي وكان في استطاعتك أن تميز الأجناس البشرية ، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا؟ من أنت إلى جانب هؤلاء؟ وماذا يكون جيشك بين هذه الجيوش؟! تريد أن تكون. . .إلخ»(٥٨) فهذا استطراد لاحاجة إليه فنيًا ، ويمكن حذفه دون أن تتأثر الرواية ، فضلاً عمافيه من خلط وتشويش حين ساوى جيوش المستعمرين الهكسوس واليونان والرومان بجيوش الفتح والصراع على الحكم (العرب ، الفاطميين ، الأيوبيين).

وفي هذه الإطار أيضًا، تأتي محاولاته للاستطراد في السرد من أجل التمويه على القارئ غير موفقة فنيًا، كما فعل مثلاً في أول الفصل الثالث في «هاتف من الأندلس» حيث يقول :

«عرضنا على القارئ صورة لنائلة الدمشقية بقدر مايستطيع القلم أن يصوّر وتركناه يستشفّ صفاتها وطبائعها وأسلوب حياتها من حديثها الفياض الذيول، الحائر الذاهب، الذي يطرق كل باب، ويسلك كل سبيل، ولانريد أن نتبرع للقارئ بذكر مانعلم من حقيقة مزاجها وفلسفتها في الحياة حتى لانفسد عليه نهج تفكيره..»(٥٩)، لقد كشف دون أن يدري عن أسلوبه في عرض شخصياته ولم يقدم جديدًا فيما بعد، لأنه قدم كل شيء تقريبًا عن طبيعة هذه المرأة، وقد تبرع بالفعل بذكر حقيقتها ومزاجها وفلسفتها سلفًا.

بيد أن أهم مايميز البناء الفني لدى «علي الجارم» هو حفاوته البالغة بالصياغة الأسلوبية في السرد، ولأن «الجارم» ينتمي إلى مدرسة البيان في النثر الحديث، فإنه يختار ألفاظه بعناية، ويبذل في صوره البلاغية جهدًا وعناية فائقة، ويعتمد على كثير من التضمين والاقتباس، وهو قبل ذلك وبعده يحاول مخلصًا أن يكون وفيًّا للمنفلوطي بنقل صوره وتعبيراته على نحو ملحوظ يمكن فيه أن نرصد «منفلوطياته» على مدى رواياته، وفي الأمثلة التالية مايمكن أن نجد له شبيهًا مطابقًا في روايات «المنفلوطي» وقصصه، ففي «غادة رشيد» مثلاً نجد هذه العبارات والفقرات :

«ولزم داره أيامًا، ليبث حزنه لنفسه، ويرسل الدمع مدرارًا دون أن يخاف رقيبًا أو مليمًا..».

«وجلس واجمًا ينكت الأرض بعصاه..» .

«وقد كانت تحب محمد حبًا جمًّا، فيالنكبة العاشقين، يامصيبة الحبيبين» .

« - مسكين يامحمود! إن الزهرة التي سقيتها بدمك، وأدفأتها بزفراتك وغرستها في سويداء قلبك، وكنت تغار من النسيم أن يمسّها، ومن الطلّ أن يلثمها، ومن الشمس الضاحكة أن تداعب أوراقها، وكنت تباهي بها الأزهار وتتحدى البساتين - قد هبّت عليها عاصفة هوجاء فتركتها هشيمًا، واصطلحت عليها الأنوار فغادرتها حطامًا. انظر إليّ يامحمود فهل تراني كما كنت، أو كما كنت تحب أن أكون! الشباب والصحة وجمال الروح، إني أحس وأنا راقدة في فراشي أن هذا السرير يعدو بي إلى الموت عدوًا، وأودّ أن أملأ عيني من كل شيء في الحياة قبل أن أفارق الحياة !!».

«إنّ ذكرى ذلك اليوم جددت الحياة في نفسي، وجعلتني أحس أن كتاب حياتي لم ينفد بعد، وأنه لايزال به صحف كثيرة من بيض وسود..»(٦٠).

وفي «هاتف من الأندلس» نجد مثل هذه العبارة:

«..حتى إذا كانت ليلة حالكة السواد مريضة النجوم، سمع طارقًا على بابه، فأسرع للقاء عائشة محتفلاً فرحًا بما سينال من أجر..»(٦١).

وحفاوة المنفلوطي بالألفاظ واضحة، فهو يختارها بعناية - كما سبقت الإشارة - وهو في ذلك يتابع أعلام البيان حين كانوا يجهدون أنفسهم في استخدام اللفظة المناسبة والأدق للمعنى الذي يريدون التعبير عنه. وقد كان حرص الجارم في هذا المجال واضحًا لدرجة أنه استخدم ألفاظًا مهجورة ومفردات غريبة ووحشية وتعبيرات غير مألوفة من قبيل: أساموا فيها سرح اللهو - الداء العقام - استكمل الظَّرف كله - خنقت الستين - تكاد تصاقب داره - امرأة خبير طبّة لبيقة - ذمامه همّ - كانت الريح زعزعًا - عتات تحته مقة - كأنه فواق المحتضر - المكان المرموق والخطر المرموق(٦٢)، استبحار العمران - فارعة الشدّ - القطة تزمزم - فتهورت من أعلى التل إلى سفحة(٦٣).

وهذه الألفاظ والعبارات - وبعضها من المحفوظ التاريخي - تدخل في السياق أو في النسيج العام للأسلوب دون شذوذ أو تنافر، وبخاصة حين يطالعها من هم على دراية بمعناها، ولكن الأمر يختلف حين نتأمل الصور البلاغيّة التي تحفل بها روايات «الجارم» بصفة عامة، فإننا نعثر على صور بيانية وبديعيّة، فيها الطريف، وفيها المحفوظ عن السابقين، وفيها أيضًا الرديء والسمج، وقد اهتم «الجارم» بهذه الصور لأن الصياغة الأسلوبية مجال مهارته الفنية الأدل في الرواية أو العمل الروائي.. ومن أمثلة التشبيهات الطريفة تشبيهه البرد بالحب. تقول نائلة لولادة:

«إنه البرد ياسيدتي؟ حاذريه ولاتستهيني به فإنه كالحب يبدأ خفيف الوقع ضعيف الأثر، ثم يعظم ويستشري حتى يصبح داءً عضالاً..»(٦٤)، وذلك التشبيه مع طرافته، فإنه يتناسب مع الحالة التي كانت عليها «ولاّدة» حينما بدأت علاقتها بابن زيدون تأخذ طابعًا أكثر توطدًا وتقاربًا.

ومن التشبيهات الطريفة أيضًا، تشبيهه ليد «عائشة بنت غالب» بقطعة الزبد في يد الخادم «بلال»، يقول الجارم: «.. وتمد إليه يدًا كانت في يده الجافية السوداء كقطعة من الزبد في جفنة القار»(٦٥)، والمفارقة هنا واضحة للدلالة على مدى ماتتمتع به عائشة من جمال (ولاحظ دلالة اسم بلال على السواد!).

ومع هذه الطرافة في التشبيه، فإن «الجارم» يتوسط في تشبيهات تتسم بعدم القدرة على تحقيق الجمال التعبيري، بل إنها تتسم بالسماجة والثقل، ومنها قوله عن «نائلة» «أو لعلها كانت تشبه بيت شعر أصابه التحريف وتوالت عليه أغاليط الرواة، حتى كاد يفقد وزنه ومعناه..»(٦٦). فبيت الشعر الذي أصابه التحريف وتوالت عليه أغاليط الرواة لايمثل الصورة التي عليها نائلة وهي في سنّ متأخرة فقدتْ فيها نضارة الشباب وربيع الحياة، فضلاً عن أن التشبيه ببيت الشعر المحرّف بعيد عن أذهان عامة القرّاء، ولايدركه إلا الذين بلغوا حظًا كبيرًا من الثقافة في اللغة يدركون به الفارق بين البيت المحرّف وغير المحرّف، أو الذي أصابته أغاليط الرواة والذي نجا من هذه الأغاليط. كذلك فإن «الجارم» عندما يريد أن يتحدث عن آثار الجمال الباقية في «نائلة» بعد أن وصلت إلى سنّ الستين، فإنه يشبهها أكثر من تشبيه: بالحديقة الذابلة، العود القديم، رسالة الغرام التي خطّ على مافيها من غزل ونسيب، وأبقى على مابها من شكوى السهاد وتبريح السقام(٦٧)، وواضح أن كثرة التشبيهات وقصورها عن تأدية المعنى الدقيق شكل عبثًا لامبرر له، وكان يكفي تشبيه واحد جيّد يعبّر عن صورة نائلة في هذه المرحلة.

وفي تصوّري أن «الجارم» حين يتعامل مع «البديع» فإنه يجد استجابة سريعة وموفقة من قلمه، ولنقرأ هذه الفقرة التي يقول فيها:

«ويبدأ عهد الخذلان – والعياذ بالله – من ولاية سليمان بن الحكم، الذي لقبوه بالمستعين بالله، وكانت أيامه شدادًا نكداث، صعابًا مشئومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، دولة كفاها ذمًّا أن أنشأها «شانجة» ومزقتها «الإفرنجة»!»(٦٨).

فهو هنا يبدو متمكنًا من اللغة تمكنًا يجعله يستخدم «البديع» بسهولة وسلاسة، وكأنه

مهندس معمار يصنع الفسيفساء أو الأرابيسك ويستخدمها بمهارة دون أن يخطئ في وضع لفظة مكان أخرى، مركزًا على الترادف والمقابلة والموازنة والمجانسة، وتلك سمة أخرى من سمات مدرسة البيان في النثر الحديث؛ تهدف إلى موسقة العبارة، واستنباط إيقاع داخلي جذاب، يؤكد المعنى الذي يهدف الكاتب إلى إبرازه وعرضه .

ونستطيع أن نعثر على الكثير من الأمثلة المشابهة، ونكتفي بذكر المثالين التاليين:

«وتذكرت يوم النشور، يوم ينفخ في الصور، ويبعث من في القبور»(٦٩).

«إنه خير ألف مرة من وزرائك المهازيل عبيد الحسان، الذين هم دائمًا زينة المحافل وهزيمة الجحافل، والذين لايحبون أن يروا كأسًا فارغة أو مملوءة، فإن كانت فارغة ملئوها، وإن كانت مملوءة أفرغوها في بطونهم»(٧٠).

ومع هذا الثراء البديعي، فإننا للأسف نعثر على بعض الصور البديعية السخيفة والتي تنتمي للمحفوظ في عصور التدهور والتخلف الأدبي، **ومنها على سبيل المثال:**

«لقد عاد الضياء ظلامًا، والعزم أوهامًا، والسيف الصارم كهامًا»(٧١).

«ذهبت بالرسائل أمس إلى ابن جهور ، وكل سطر بها فيه الموت القُزَام، والكوارث الجسام»(٧٢).

ثمة ظاهرة أسلوبية ترتبط بماسبق في السرد الروائي لدى الجارم وهي التضمين والاقتباس، من القرآن الكريم والشعر والأمثال، ويبْدو التأثر القرآني واضحًا بقوة في مواضع كثيرة، فحين يصف قرطبة وطلاب العلم يقبلون عليها ويفدون من أقاصي الأرض يقول: «لعلهم يأتون منها بقبس أو يجدون على النار هدى»(٧٣) وهي مقتبسة عن الآية الكريمة: ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾ (٧٤).

وهـذا التأثر له صلة بمنهج مدرسة البيان في النثر الحديث، حيث تحرص على الانتساب للقرآن الكريم باعتباره رمزًا للنموذج الأعلى للأسلوب من ناحية، وباعتباره دليلاً على الشخصية العربيّة وتميزها من ناحية أخرى .

وعندما يعلق «الجارم» على عبث أهل قرطبة وتغاليهم في حبّ الحياة فإنه يقول:

«فماأغنتهم النذر، وماحاكت فيهم العبر والمثلات، إلى أن جرّهم حب الحياة إلى الموت الذي لاصحوة بعده»(٧٥)، وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴾(٧٦) وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ ﴾(٧٧).

وحين يصف مايضمه قبو القصر من خمور فإنه يقول: «وبقبو القصر كل صنوف الشراب، وكل رحيق مختوم، مزاجه من تسنيم»(٧٨) مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ . خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ . وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴾ (٧٩).

أما التضمين بالشعر، فقد أخذ حظه الوافر، بل إنه يخصص حوارات لتقويم الشعر ونقده وإبداء الرأي فيه، حتى من خلال الصور البلاغية، كما أشرنا عند تشبيهه لنائلة ببيت الشعر الذي دخله التحريف وأغاليط الرواة. وقد يأتي مقبولاً في معرض وصف الأحداث، مثلما فعل عند وصف شباب قرطبة واستغراقهم في اللهو والترف. «وكان لشبابها جولات أساموا فيها سرح اللهو، واستناموا إلى النعيم، وأطلقوا العنان للذات حتى ليقول **شاعرهم**:

لاتنم واغتنم ملذة يومٍ
إن تحت التراب نومًا طويلاً !»(٨٠)

وكأنه يجد في الشعر مصداقًا لوصفه. أما توقفه عند تقويم الشعر ونقده، فهو – من وجهة نظري ممالا يحتمله السرد الروائي، ولعل تعليقه على بيتين لشاعر إشبيلي من خلال حديث «ولاّدة» من أوضح الأمثلة على ذلك.

«ثم أنشأت تشيد بشاعر إشبيلي سمته أبا بكر زعمت أن له غزلاً رقيقًا، وأسلوبًا ناعمًا، وخيالاً لطيفًا، وأنشدت له:

ياأبدع الخلق بلا مِرْية   وجهك فيه فتنة الناظرين
لاسيما إذ نلتقي خطرةً   فيغلب الورد على الياسمين

ويعلق علي ذلك من خلال «ولادة» بقوله:

«أمًا بيته الأول فهراء مكرر لم يرد به إلا الدخول على البيت الثاني، وكلمة

بلامرية حشو سخيف، على أني لاأرى في البيت الثاني إلا معنى مبذولاً ملقىً على الطرق، فتشبيه الخد بالورد والياسمين تشبيه قديم، سئم منه الشعر، ومجه الشعراء.. »

ولم يتوقف عند ذلك، بل إنه يتناول موقع «لاسيما» حيث يراها تشبه عبارات الفقهاء، ويقارنها – على لسان ولادة طبعاً – بشعر لابن زيدون، يقول فيه:

ألداعيك مجيبُ؟ أمْ لشاكِيك طبيبُ؟
ياقريبًا حين ينْأى حَاضِرًا حينَ يغيبُ!
كيف يَسلُوك محبٌّ زَانَةَ منكَ حبِيبُ؟
إنما أنتَ نسيمٌ تتلقَّاهُ القلُوبُ(٨١)

وإذا كانت رواية «هاتف من الأندلس» قد حفلت بحشو عظيم من الشعر ونقده، فإن «غادة رشيد» تتجاوز ذلك إلى حدّ ما، بل إن الشعر هناك يكاد يكون موظّفًا فنياً لخدمة الرواية، وبخاصة ماجاء على لسان شاعر رشيد وزجالها الشيخ «عبد الله البربير» كما سبقت الإشارة.

وإلى جانب التضمين بالشعر، فإن «الجارم» يضمّن بالكثير من الأمثال والحكم، ومنها «شالت نعامتنا» «وإن كان يقصدني فلأمه الهبل»، «ونظمت برأس صخرة لأوهنها كما يفعل الوعل الأحمق»(٨٢).

بل إنه يضمن ببعض الأمثال العامية، مثل «إن البعيد عن العين بعيدعن القلب»(٨٣) وواضح أن الاستشهاد أو التضمين ببعض هذه الأمثال جاء بعيداً عن تحقيق الهدف الفني، لغرابته عن جوّ السياق.

هنالك خطوة متقدمة لجأ إليها «الجارم» في سرده الروائي، وبه اعتماده على المونولوج الداخلي أو الحديث إلى النفس، وقد استخدمه بطريقة جيِّدة ومؤثرة في النسيج الروائي، مثال ذلك حديث ابن زيدون إلى نفسه حول ولادة حين سارت مع ابن عبدوس منافسه وغريمه في حبها، وقد لعبت به هواجس نفسه، وعصفت به لواعج حبه: أين أنا؟ وأين كنت؟ ومن هذه التي كانت بجانبي حتى أخذها هذا المنحوس الطلعة، الأغمّ القفا، الوغد المأفون؟ أهذه ولاّدة؟ ولادة بنت المستكفي التي صورّها الله

للجمال مثالاً، وجعلها للظرف عنوانًا. ولادة التي خلقت لتكون نموذجًا لما أعد الله للمؤمنين من ثواب في جنات النعيم، ومعنى مجسماً لما حاول الشعراء أن يوحوا ببعضه فوقف بهم الخيال، وضاق النظم، وعجزت القافية؟ وأين أنا منها؟ أين منها ذلك الشاعر التائه المضطرب، الذي أضاع رَدَحاً من شبابه من غزل كاذب، ونعيم موهوب، وأبواب الجنة منه على قيد خطوات . . . . إلخ» (٨٤).

بقى جانب مهم تنبغي الإشارة إليه وهو «الحوار»، حيث يلعب الحوار دوراً مهماً في البناء الروائي بصفة عامة، ويتراوح الحوار لدى الجارم بين نمطين، نمط طبيعي يتسق مع السرد والأحداث، ونمط يبدو مملاً وطويلاً وفوق مستوى المتحاورين وأكبر من قدراتهم الثقافية. ومن النوع الأول مادار بين أم زبيدة، وأخيها من أبيها على الحمامي، حول زواجها من الجنرال «مينو» !

«– وهل قبل أبوها ؟

– قبل مسرورًا، وسافر ليعدّ جهازًا يليق بالجنرال .

– إنني لاأعرف مايعرفه الرجال، ولكني غير مسرورة لهذا الزواج، لأنه زواج غيرعادي، ولاأظن أنه ينتهي بخير .

– دعى الأمر لله .

– آمنت بالله لارب سواه». (٨٥).

وواضح أن العبارات غير طويلة، وجملها قصيرة، ومؤدية للمعنى في حيويّة وحركة سريعة، مماجعل الحوار أقرب إلى الواقع والطبيعة، وكذلك نجد في النموذج التالي الملامح نفسها للحوار الطبيعي الذي يتميز بالقصر والسرعة:

«جارية تفاجئ ابن زيدون فيلقى نفسه على كرسي بجانبه وقال وهو يلهث :

– أعوان ابن جهور؟

– نعم ياسيدي.

– ماعددهم ؟

– أربعة ياسيدي .

● **هل يبدو على وجههم العبوس ؟**

– هم دائماً عابسون ياسيدي .

● **حينما تحدثوا إليك هل كان في كلامهم غلظة وخشونة ؟**

– كانوا أشدّ غلظة من زبانية الجحيم .

فأطرق ابن زيدون طويلاً، وأخذ يحدث نفسه . . . .»(٨٦).

ويمكن أن نرى نماذج كثيرة للنوع الثاني أو النمط الثاني، والفقرات تطول إلى حدّ يبلغ مقالة أو خطبة على لسان أحد المتحاورين، ومن ذلك ماقاله «محمود العسال» لزبيدة يرجوها أن توافق على خطبته :

« . . لقد وعدتني في آخر لقاء لنا يازبيدة أنك، ستفكرين في الأمر، وستصارحينني بما انتهى إليه رأيك، وسألتك الرحمة بي فيما تفكرين، والإشفاق علي فيما تقطعين، ووالله مالقيتك بعدها إلا خفت أن أسألك عما هداك إليه التفكير من الحكم لي أو علي، لأني رأيت من الخير أن أعيش في نعمة من الشك، وأن أستمر في مداعبة أمل واهن أضعف من أنفاس المحتضر، والذي قال: إن اليأس إحدى الراحتين لم يكن يعرف أن العاشق كا لغريق يتوكأ على الثمامة، وأنه لولا مايلازم الحب من الرجاء والخوف لكان إحساساً حقيراً كإحساس الجوع والعطش. مضى شهران يازبيدة وأنا في هذا الشك، فهل لديك اليوم كلمة أقوّي بها أملي، وأتوسم فيها وجه سعادتي؟ لاتقولي»: «لا» يازبيدة، فإنه لم يبق لي إلا وتر واحد ضعيف من أوتار الأمل أعزف عليه أنشودة غرامي، فإذا قطعته سكتت أنشودتي، وسكنت معها نبضات قلبي. قولي «نعم»، وإذا عزّ عليك أن تقوليها فلاتقولي «لا» فالتفتت إليه وقالت:

– أنت لاتشك يامحمود أني أحبك كما أحب أخي علياً، وأنى كلما فكّرت في أمرك ارتفع في نظري هذا الحب الأخوي الطاهر الشفاف على حبّ الزوجة لزوجها، فأضنّ به أن يذهب من يدي لأستبدل به حباً مادياً أرضياً، ربما دام وربما لايدوم. . . .»(٨٧).

ويكاد الحوار هنا يتحول إلى خطبة يجتهد الخطيب في حشد الأدلة والبراهين

والمؤثرات والمثيرات ليقنع الطرف الآخر بماديه ويحقق غايته، وهو مايرفع نبرة الرواية ويقلّل من فرصة التأثير الفني الذي تستهدفه الرواية أساساً..

ويلاحظ أن الكاتب هنا متأثر بمنهج المنفلوطي في أسلوب رواياته المترجمة والمؤلفة، وبخاصة في السرد والحوار، وفي هذا الحوار يغرق في الاستعطاف والرجاء، إلى درجة الانهيار «العاطفي» أمام، الطرف الآخر، وهي على كل حال سمة بارزة من سمات المنفلوطي تناولناها في موضع آخر(٨٨).

وفي رأيي أن ارتفاع مستوى الحوار على لسان بعض الشخصيات يعود إلى اهتمام «الجارم» بالصياغة الأسلوبية، وهي محور من محاور البيان، ألحت عليه مدرسة البيان، ورأت فيه مجال تفوق وابتكار.

٦ – لاشك أن «علي الجارم» برواياته التاريخية، أسهم إسهاماً جيّداً ورائداً في تنشيط الذاكرة القومية والإسلامية بماضٍ حافل جمع إلى صور العزة والمجد صوراً أخرى من الهزيمة والقهر، وبوساطة النوع الأول تتحدى الأجيال الحاضرة المحن وتتجاوز الآلام، وبالنوع الثاني تتفادى عوامل التحلل والفناء، وقد كانت عاطفته في هذا المجال قويّة دافقة، تنبض بالإيمان وتعبّر باليقين وتشعّ بالأمل.

وإذا كان حظّه أنه عبّر برواياته في فترة تعريب الرواية وتوطينها في الأدب العربي، لتأتي حاملة بعض الملاحظات التي تؤثر في البناء الفني، فإن ذلك لايقلّل من قيمة الدور الرائد الذي لعبته في تقديم التاريخ العربي الإسلامي من وجهة نظر إسلامية صافية، ربما لأول مرة، في عصرنا الحديث، كما يحمد لها أنها حققت غايتها التربوية التي تغيّاها عند تأليفها في إطار من التشويق والأمل، وهو ماتحتاج إليه أمتنا في طريق نهضتها أو صحوتها القادمة بلاريب إن شاء الله.

• • •

الهوامـش

(١) على الجـارم (١٢٩٩ - ١٣٦٨هـ/١٨٨١ - ١٩٤٩م)، ولد في رشيد بحيرة، من أسرة متديّنة، وتعلّم في الأزهر، ثم دار العلوم حيث تخرج منها سنة ١٩٠٨، واختير عضواً في بعثة علمية لدراسة التربية وعلم النفس، فدرس في جامعة «نوتنجهام» بإنجلترا وعاد إلى مصر سنة ١٩١٢، ليعمل في ميدان التدريس، وارتقى إلى وظيفة مفتش أول اللغة العربية، وانتقل إلى دار العلوم ليصبح عميدًا لها حتى إحالته على التقاعد في عام ١٩٤٢، وكان الجارم من أبرز أعضاء مجمع اللغة العربية بمصر، وقد ترك آثارًا أدبية عديدة منها: ديوانه الشعريّ الذي يقع في أربعة أجزاء، ورواياته التاريخيّة وكتبه المدرسية والتربوية والترجمة (راجع الفصل الثاني من الباب الأول في كتاب علي الجارم لمحمد عبد المنعم خاطر - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر-١٩٧١م).

(٢) لعل أبرز الأمثلة على الخلط والتشويه تبدو فيما كتبه «جرجي زيدان» تحت عنوان «روايات تاريخ الإسلام»، وكان تركيز «زيدان» على العلاقات العاطفية بين شخوص الروايات أكثر من تركيزه على معالجة الأحداث من أكبر عوامل الخلط والتشويه حيث بدت القضايا الكبرى مجرد غراميات رخيصة، ويبدو أن الأمر كان فوق طاقته بحكم ظروف عديدة، مماتحتاج معالجته إلى مناسبة أخرى يضيق عنها المجال هنا.

(٣) لاشك أنه يحسب لمن تناولوا أحداث التاريخ الإسلامي وقصروا في تناولها، الفضل في تنبيه الأذهان إلى مايحويه هذا المجال من كنوز أدبية يمكن معالجتها والكتابة عنها بأكثر من أسلوب وصياغة.

(٤) كتب الجـارم عشر روايات تاريخية، والعاشرة لم يكملها، والروايات العشر، هي: ١- مرح الوليد، حول أحد الخلفاء الأمويين. ٢- الشاعر الطموح ٣- خاتمة المطاف، وكلتاهما عن المتنبي ٤- فارس بني حمدان، عن سيف الدولة الحمداني ٥- سيدة القصور، آخر أيام الدولة الفاطمية في مصر. ٦- نفيسة المرادية، وتتناول مرحلة الحملة الفرنسية على مصر وموقف المماليك. ٧- غادة رشيد، عن الحملة الفرنسية وحملة فريزر. ٨- هاتف من الأندلس، حول ابن زيدون وولادة وحكام الطوائف. ٩- شاعر ملك، حول المعتمد بن عباد الأندلس. ١٠- قتيلة القباقيب، عن شجرة الدرّ ولم يكملها الجارم (راجع: علي الجارم لخاطر ٧٠-٨١)، ويلاحظ أن الشعراء - والشعر - يحظون بنصيب وافر في هذه الروايات.

(٥) سنتناول هذه المفردات والألفاظ في سياق الحديث إن شا الله .

(٦) يلاحظ أن عدداً من هذه الروايات قد طبع في سلسلة اقرأ التي تصدرها دار المعارف، وهي سلسلة شعبية رخيصة الثمن (في زمانها)، وقراؤها كثيرون ومعظمهم من الشباب، وقد اعتمدنا هنا بالنسبة لرواية «هاتف من الأندلس» على طبعة المطابع الأميرية بالقاهرة - ١٩٧٣، ورواية غادة رشيد - طبعة دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٧.

(٧) هاتف من الأندلس: ص ٣.

(٨) الرواية: ص ٧ .

(٩) الرواية: ص ٦ .

(١٠) الرواية: الصفحة السابقة نفسها .

(١١) الرواية: ص ٨ .

(١٢) الرواية: ص ٨ ومابعدها .

(١٣) الرواية: ص ١٠.١٢ .

(١٤) الرواية: ص ١٨ .

(١٥) راجع: نفح الطيب: ٢٠٥/٤ - ٢٠٩، ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر - د.ت - ص٣٨ ومابعدها .

(١٦) هاتف من الأندلس: ص ٢٣ .

(١٧) الرواية: ص ٢٥ .

(١٨) الرواية: ص ٢٤ .

(١٩) انظر مثلاً: ص١٠٢، وتأمل حيلتها للحصول على رسائل ابن زيدون لعائشة والتي كانت تتخذها وسيلة ابتزاز وتهديد.

(٢٠) هاتف من الأندلس: ص ١٢٦ .

(٢١) الرواية: ص٤٤ ومابعدها .

(٢٢) الرواية: ص ١٥٨ .

(٢٣) هاتف من الأندلس: ص ٣٠ .

(٢٤) السابق: ص٣٢: وانظر أيضاً: ١١٤ .

(٢٥) السابق» ص ٤٤ ومابعدها .

(٢٦) انظر هاتف من الأندلس: ص٨٤.٨٥، وغادة رشيد: ص ١٧١.١٧٤.

(٢٧) هاتف من الأندلس: ١٥٠ .

(٢٨) رواية غادة رشيد: ص ٢٠٧، ٢٠٨ .

(٢٩) لم أستطع التوصل إلى التاريخ الذي كتبت فيه الرواية بالرغم من أنها نشرت أول مرة في دار المعارف في ١٩٤٥، ويبدو لي أنها أول رواية بالفعل، وفي حدود مطالعاتي لم أعثر على رواية أخرى تناولت الحملة الفرنسية على مصر .

(٣٠) غادة رشيد: ص ٩ .

(٣١) السابق: ص ٦ .

(٣٢) نفسه: ص ١٤٠ .

(٣٣) عالج الأستاذ محمود محمد شاكر هذه المسألة تفصيلاً «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» – كتاب الهلال – أكتوبر ١٩٨٧ – ص ١٩٥، والكتاب هو المقدمة الجديدة التي أضافها لكتابة الشهير «المتنبي» في طبعته الجديدة ١٩٨٧ .

(٣٤) غادة رشيد: ص ١١٨ .

(٣٥) السابق: ص ٩٦ .

(٣٦) نفسه: ص ١٠٠ ومابعدها .

(٣٧) نفسه: ص ٥ .

(٣٨) غادة رشيد: ص٤٠ ومابعدها .

(٣٩) السابق: ص١٠ .

(٤٠) نفسه – ص٢٠/٢١ .

(٤١) نفسه: ص ٢٢ .

(٤٢) غادة رشيد: ص ١٧١ .

(٤٣) غادة رشيد: ص ١٩٥ .

(٤٤) السابق: ص ١٥٨ .

(٤٥) راجع الفصل السابع من رواية « غادة رشيد» وهو يدور حول الرجل وابنته، وسترى من سلوكهما وأقوالهما مايؤكد أنهما قد أصبحا مصريين أو كادا .

(٤٦) غادة رشيد: ص٤٦ .

(٤٧) السابق: ص ٢١٠ .

(٤٨) السابق: ص٢٢٧ – ونلاحظ أنها تقول في موضع «سأكون بجانب محمود، وسأجاهد في سبيل مصر جهادًا يحسدني عليه أبناؤها ص ١٧١» .

(٤٩) ختام رواية غادة رشيد، ويلاحظ أن الناشر أضاف أبياتًا لنجل المؤلف (بدر الدين علي الجارم) يقول فيها مندّدًا بموقف «زبيدة» من «محمود» :

عصفتْ بك الأطماعُ والأيام   وتبددَتْ عن جَفْنِك الأحلامُ
وتركتِ محمودًا يصارعُ قلبَهُ   حتى ترفرفَ فوقك الأعلامُ
وصببتِ فوقَ ضريحهِ دمع الهوى   و الحبُّ والأمل البعيدُ حطامُ
وبعثتِ روحكِ في ثنايا روحهِ   فعلى شبابكما الرطيبِ سلامُ!

(٥٠) غادة رشيد: ص ١٧١ .

(٥١) السابق: ص ١٧٥ .

(٥٢) السابق: ص ١٢٤ .

(٥٣) السابق: ص ٣٩ .

(٥٤) غادة رشيد: ص ١٦٢، ١٦٣ .

(٥٥) السابق ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٥٦) غادة رشيد: ص ١٦١ .

(٥٧) هاتف من الأندلس: ص ٦٢، وانظر أيضًا ص ٨٨ في حديثه عن اختفاء الخزائن .

(٥٨) غادة رشيد: ص ٦١ .

(٥٩) هاتف من الأندلس: ص ٣٩ .

(٦٠)غادة رشيد: صفحات ١١١، ١١٥، ١١٦، ٥٠، ٥٤، على التوالي .

(٦١) هاتف من الأندلس: ص ٢٠٠ .

(٦٢) السابق: صفحات ٤، ١٠، ٢٢، ٢٤، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٦٣، ١٥٢، ١٦٨، ١٧٦ على التوالي، وأساموا: رعوا. سُرُح: السهل أو المكان المنبسط ومعنى أساموا سرح اللهو: قصدوا أو ذهبوا إلى أماكن اللهو. العقام: الذي لايبرأ منه، الظَّرْف: الحسن، خنقت: بلغت، تُصَاقب: تلي، طبّة: ماهرة، لبيقة: ظريفة، أُمامة: بقية، زعزعًا: شديدة، مقة: أثر، فُواق: شهقة، الموموق: المحبوب.

(٦٣) غادة رشيد: صفحات ٤، ٦، ١٣، ٥٣، واستبحار: اتساع وانبساط، فارعة: طويلة، تزمزم: تصوّت، تهورت: وقعت .

ويلاحظ أنه كان يستخدم ألفاظًا غير موفقة على الأقل في أيامنا، كاستخدامه لفظة المتآمرين بدلاً من كلمة الثوار والمجاهدين من أبناء مصر الذين يقاومون الحملة الفرنسية ويحاربونها، وإن كانت الكلمة صحيحة الاستعمال في ذاتها .

(٦٤) هاتف من الأندلس: ص ٢٧ .

(٦٥) السابق: ص ٢٠٢ .

(٦٦) السابق: ص ٢٥ .

(٦٧) السابق: ص ٢٤-٢٥.

(٦٨) السابق: ص ١١ .

(٦٩) غادة رشيد: ص ١٥٤ .

(٧٠) هاتف من الأندلس: ص ٣٥، وقد آثرت أن أنقل الكلمات برسمها الإملائي كما وردت في الكتاب.

(٧١) غادة رشيد: ص ١٩٦ .

(٧٢) هاتف من الأندلس: ص ٩٦. والقُزام: السريع .

(٧٣) السابق: ص ٥٣ .

(٧٤) سورة طه: ١٠ .

(٧٥) هاتف من الأندلس : ص ٤ .

(٧٦) سورة القمر: ٥ .

(٧٧) سورة الرعد: ٦ .

(٧٨) هاتف من الأندلس: ص ٤١، وانظر أيضاً ص ٦٣، ٩١، وغادة رشيد: ص ٦٠، ١٨٦، بل إنه جعل «نيكلسون» الإنجليزي يتأثر بالأسلوب القرآني: غادة رشيد، ص ١٧٤ .

(٧٩) سورة المطففين: ٢٥ – ٢٧ .

(٨٠) هاتف من الأندلس: ص ٤ .

(٨١) السابق: ص ٢٠.٢١. وانظر أيضاً صفحات ١٢، ١٦، ٥٥.

(٨٢) السابق: صفحات ١١٦، ١٢١، ١٣١ على الترتيب .

(٨٣) غادة رشيد: ص ٢٢١ .

(٨٤) هاتف من الأندلس: ص ٤٩، ٥٠، وانظر أيضاً ص ٥٢، ٥٣ .

(٨٥) غادة رشيد: ص ١٠٥ .

(٨٦) هاتف من الأندلس: ص ٩٦ .

(٨٧) غادة رشيد: ص ٦.١٧، وانظر أيضاً: ص ١٨، وهاتف من الأندلس: ص ٥٤ .

(٨٨) انظر كتابي: مدرسة البيان في النثر الحديث، الباب الثالث، الفصل الأول، ص ٢٨٣ ومابعدها